الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة ٣٩ شارع الكرداني عابدين — القاهرة — التليفون رقم ٥٣٩٩٩ و ٥٦٦٦٩

العدد ٣٣٦ — الثلاثاء ٢٤ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٤ — ٥ من يونيه سنة ١٩٤٥ — السنة السابعة

فهرس العــــدد

اتجاهات السياسة الأوربية الجديدة

وصلتها بأسباب القلق الحاضر

لم تمض أسابيع قلائل على مصرع ألمانيا النازية، وتحقيق النصر الذي جاهدت الأمم المتحدة في سبيله ستة أعوام مفعمة بالشدائد، حتى أخذت السحب تغشى الأفق الدولي، وأخذت المسائل الشائكة تبدو متعاقبة، وتنذر بتكدير صفو السلم الذي يتطلع إليه العالم الظمىء إلى الاستقرار والسكينة، وأخذ شعور من القلق والتشاؤم يغشى بهجة النصر التي لم يفق العالم بعد من نشوتها.

ولقد كان تحقيق السلم المبني على احترام الحقوق القومية والمبادىء الإنسانية شعار الأمم المتحدة طيلة هذا الصراع الهائل المروع، وما فتئت الأمم المتحدة ترده وتؤكده في كل عهد تصدره أو مؤتمر تعقده. ولكن ما إن لاحت تباشير النصر من ضروب الخلاف بين وجهات نظر الدول الكبرى، وما ظهر بعد النصر من تفاقم هذه الخلافات، ومساسها ببعض المبادىء الأساسية التي قطعتها الأمم المتحدة في ميثاق الأطلنطي وغيره، مما يتصل أوثق الصلة بأسباب هذا القلق الذي يغشى الآن الأفق الدولي، ويثير جزع كثير من الأمم التي علقت على انهيار صروح الطغيان الفاشستي والنازي أعظم الآمال.

بيد أنه قد يكون من التعجل أن نغلب منذ الآن روح التشاؤم فيما نشهد من ظهور بعض المشاكل الإقليمية والسياسية المترتبة على انتهاء الحرب في أوربا، وتحرر الأمم المغلوبة، فظهور مثل هذه المشاكل أمر طبيعي في مثل هذا الوقت الذي تضطرم فيه الشهوات القومية والسياسية لدى بعض الأمم الطامعة إلى تحقيق المطامع باسم

السكفاح المشترك ؛ وكل شيء يتوقف في كبح جماح هذه الشهوات الخطرة على مسلك الدول الكبرى ، فإذا تناولت الأمور بروح الحزم ، والتجرد عن الأهواء ، وصيانة مصلحة السلم دون سواه ، كان لنا أن ننتظر حلولاً ناجحة موفقة لمشاكل أوربا الإقليمية والسياسية في مؤتمر الصلح القادم . وأما إذا اتخذت هذه المشاكل مثاراً لصراع الدول الكبرى حول مناطق النفوذ ، ودفعت الأمم الصغرى إلى أن تلعب دورها الخطر ، فإنه يخشى أن تنحدر أوربا إلى غمرة طاحنة من الفوضى على غرار ما حدث عقب الحرب الكبرى .

وإذا لم يكن من الخير أن نستبق القول في الحكم على مصاير أوربا ومصاير السلم في تلك الأزمة التي يسودها الغموض والتناقض ، فقد يكون من المفيد أن نحاول فهم العوامل التي توجه سير السياسة الأوربية الحاضرة ، وتوجه مسلك الدول الكبرى إزاءها .

ويجب أن نذكر أولاً أن العوامل التاريخية والسياسة القديمة تلعب دورها بالرغم من كل شيء ، وكل ما هنالك أنها تحاول أن تفيد من التغييرات الجديدة التي طرأت على أوضاع القارة الأوربية ، والتي ترتبت بالأخص على اختفاء ألمانيا وإيطاليا من ثبت الدول العظمى .

فروسيا السوفيتية التي تبدو بعد انهيار ألمانيا أعظم قوة عسكرية في القارة ، تتجه اليوم في سياستها الدولية إلى تحقيق أغراض السياسة القومية ، وهي لا تختلف في جوهرها عن أغراض السياسة القيصرية القديمة ، وتنحصر هذه الأغراض فيما يأتي :

أولا — تدعيم سيادة الجنس السلافي وتفوقه في شرق أوربا وأواسطها . وقد لبثت معركة الجنس السلافي والجامعة الجرمانية عصوراً من أهم ظواهر التاريخ الأوربي ؛ وقد بلغت هذه المعركة السياسية والاجتماعية ذروة الخطورة منذ قيام النازية ، وشعارها تفوق الجنس الآري وسيادته ، وكان غزو الجيوش الألمانية لروسيا خلال هذه الحرب أعظم مجهود قامت به الجامعة الجرمانية لإخضاع الجنس السلافي وإبادته ؛ ولكن هذه المعركة الهائلة انتهت بهزيمة الجامعة الجرمانية وظفر الجنس السلافي أعظم ظفر حققه في تاريخه ؛ وسيترتب على ذلك أن تبقى ألمانيا زعيمة الجامعة الجرمانية عصراً في حالة ضعف وانحطاط شديدين ، وتستقبل روسيا زعيمة الجنس السلافي أعظم عصر من القوة والنهوض .

ثانيا — أن تستأثر روسيا بالنفوذ السياسي والأدبي فيما تعتبره مناطق سلامتها ، ويشمل ذلك شرقي أوربا وأواسطها وبلاد البلقان حتى منطقة البواغيز التركية التي تعتبرها روسيا منذ عصور ذات صلة وثيقة بسلامتها ، وترى روسيا بوجه خاص أن كل ما يتصل بحدودها الغربية والجنوبية من المسائل الإقليمية مما يتصل مباشرة بسلامتها ، هو من مسائلها الخاصة التي لا تقبل فيها تدخلاً أو مناقشة من أي نوع ؛ ومن ثم كان موقفها الصارم ، من المسألة البولونية ، وتعقد هذه المسألة إلى حد الخطورة .

وهذه الأغراض السياسية البعيدة المدى التي يلوح لنا أن السياسة الروسية تتخذها شعارا لها تقترن باتجاهات اجتماعية لها خطورتها ؛ ومع أننا لا نعتقد أن موسكو سوف تحاول فرض نظمها الاشتراكية على الأمم الأوربية ولا نعتقد أن نظم أوربا الديمقراطية سوف تتحول إلى بلشفية أو شيوعية كما يتوهم البعض ، فإنه من المعروف أن موسكو لا تغضي عن قيام ما تسميه بالنظم المشبعة بالروح الفاشستية كما هو الشأن في تركيا وأسبانيا ، كما أنها تعطف على الاتجاهات الاشتراكية والشيوعية ، كما هو الشأن في موقفها من اليونان ويوجوسلافيا .

يقابل هذه الاتجاهات موقف السياسة البريطانية من

شئون القارة الأوربية . وقد كانت السياسة البريطانية تقوم قبل الحرب الحاضرة على مبدأ التوازن بين الدول العظمى ولا سيما بين فرنسا وألمانيا من جهة وبين فرنسا وإيطاليا من جهة أخرى . ولم يكن يحسب لروسيا البلشفية في هذا التوازن كبير حساب لعزلتها السياسية والاعتقاد السائد في تفككها وضعفها ، ولكن اختفاء ألمانيا وإيطاليا من ثبت الدول العظمى ، وانهيار فرنسا إلى أمد طويل ، يضع السياسة البريطانية ومن ورائها حليفتها القوية الكبرى أمريكا إزاء السياسة الروسية وجها لوجه . ومع أنه لم يبق اليوم مجال لسياسة التوازن الأوربي القديمة ، فإن السياسة البريطانية ما زالت عند غاياتها التقليدية في الاحتفاظ بنفوذها السياسي في غرب أوربا وفي حوض البحر الأبيض المتوسط . ومن الواضح أن سيطرة بريطانيا على البحر الأبيض المتوسط تغدو اليوم أقوى وأتم ، بعد أن فقدت إيطاليا شواطئ برقة وطرابلس وأصبح أسطولها ، وبعد أن فقدت فرنسا معظم قواها البحرية .

* * *

تلك هي الاتجاهات السياسية التي تغلب اليوم على القارة الأوربية من الجانبين الشرقي والغربي . ومن المعروف أن الدول الثلاث الكبرى قد تفاهمت في مؤتمر القرم إلى جانب الشئون العسكرية ، ومناطق الاحتلال ، على مدى هذه الاتجاهات السياسية وحدودها بصفة عامة . ولكن الخلاف ينشأ الآن على كثير من التفاصيل : فالمسألة البولونية ، ومناطق الاحتلال في ألمانيا ، وإدارة المناطق المحتلة ، تغدو اليوم مشاكل شائكة تتطلب الحل العاجل . كما أن مسألة تريستا تدل من الناحية العملية على زحف العناصر السلافية والشيوعية التي تؤيدها روسيا . ويدل موقف انجلترا الحازم منها على أنها لا يمكن أن تنقض من حركة تتصل بسيادتها في البحر الأبيض المتوسط .

والخلاصة أن عناصر الخلاف والقلق التي تسود الآن جو أوربا ترجع إلى أن أهداف السياستين الروسية والبريطانية والأمريكية لم يكمل تنسيقها بعد . وإذا كانت هذه العناصر تنذر اليوم نذيراً مزعجاً فيما يتعلق بتنظيم السلم المستقبل ، فمن المعقول أنها لن تترك على هذا التمرض إلى أجل غير مسمى . والمعتقد أن اجتماع الأقطاب الثلاثة في المستقبل القريب في مؤتمر جديد ، كفيل بتنسيق أهداف الدول الكبرى ، وإزالة أسباب الخلاف في كثير من المسائل التي تثير اليوم سحبا في الأفق .

وإنه ليصعب علينا أن نعتقد في هذه الآونة أن الدول الكبرى التي صهرت في أتون الحرب ، واحتملت كل هذه المحن والتضحيات الهائلة في سبيل الوصول إلى النصر ، أتى في نهاية الشوط تنسى أهدافها العظيمة من أجل منازعات محلية لا يصعب تذليلها .

* * *

ويهمنا قبل كل شيء أن نعرف ما إذا كانت الدول الكبرى سوف توفق إلى جانب تنسيق أهدافها القومية الخاصة إلى تنظيم السلم المستقبل على أسس ثابتة عادلة ، وما إذا كانت ستحترم العهود المقطوعة .

وذلك أن ما رأيناه من مسلك فرنسا الأخير في سوريا ولبنان أو بعبارة أخرى ما رأيناه من اعتداء إحدى الدول بهذه الصورة المؤلمة على حقوق شعب اعترفت سائر الدول باستقلاله مما يثير في نفوسنا أعظم المخاوف من هذه الناحية ! ولن تزول هذه المخاوف من نفوسنا إلا أن تبادر الدول الكبرى إلى كبح جماح هذه النزعة الاستعمارية التي تتورط فيها فرنسا دون تبصر ولا روية ، وإلا أن تقدم الأدلة المادية على أنها تنوي الوفاء حقا بما قطعته على نفسها من عهود مقدسة في ميثاق الأطلنطيق وغيره باحترام حقوق الدول الصغرى .

محمد عبد الله عنان

حول الإسلام والعلوم

نظرة إلى الماضى
وأمل فى المستقبل

كتب الكثيرون عن الأثر العميق الذى كان لعلماء المسلمين فى تقدم العلم . وقد قرأنا للمسلمين ولغيرهم كتابات عديدة فى هذا الموضوع ، غير أننا عثرنا على شهادة حديثة نشرت افتتاحية لأحد أعداد هذه المجلة (Endeavour) شهادة مشرقة قوية رأينا أن نشرها مفيد فى هذا الأوان الذى ينفض العرب فيه عن أنفسهم غبار الكسل والقعود ، ويتطلعون لمستقبل باهر ويتوقعون نشاطا منتجا فى جميع نواحى الحياة وفى جميع البقاع التى يقطنها المسلمون ، وكذلك فى هذا الوقت الذى تتحرش فيه [illegible] صغيرتين دولة غربية ذات الأسس [illegible] وأحست مرارة الظلم والاستبداد [illegible] للمسلمين وحضارتهم وما كان لهم من فضل على أوربا وعلى العلم بوجه عام .

كتب المقال الذى ننقل عنه بمناسبة زيارة ملك الأفغان إلى مركز الثقافة الإسلامية فى لندن واطلاعه على مشروع إنشاء جامع جديد بها ينتظر أن يشرع فى بنائه عقب انتهاء الحرب على قطعة أرض قدمتها الحكومة الإنجليزية ، وذكر الكاتب أن هذه الزيارة قوبلت بترحيب عظيم لاسيما فى الأوساط العلمية التى تذكر أنه منذ ألف سنة كانت شعلة العلوم متقدة ونورها ساطعا فى البلاد الإسلامية وعلى أيدى المسلمين وحدهم ، والتى يحدوها أمل مشجع أنه بحلول السلم ستهب العبقرية الإسلامية من سباتها العميق ولتستعيد نشاطها العلمى القديم فى قوة وعزم وبصيرة نفاذة .

والذى يبعث على هذا الأمل هو الاعتقاد بأن على أمم العالم أجمع أن تساهم كل قدر استطاعتها فى بناء العلم وفى تقدم المعرفة . ولو كانت المصادفة قد شاءت أن يكون العامل الأساسى فى هذا التقدم فى خلال الثلاثة أو الأربعة القرون الأخيرة هو الفكر الغربى فإننا لا ننسى أن أساس التقدم العلمى يقوم على خصب الخيال البشرى وازدهار إنتاجه . ولقد صدق العالم الذى قال : « دعونا أيها السادة نتعلم كيف نحلم ونستغرق فى الأحلام » فإن هذه هى الطريق التى نشأت بها النظريات كبيرها وصغيرها ، ما نرتاح إليه وما لا نرتاح . وعلى الرغم من أن هذه الخيالات والتصورات تزداد كما تزداد الوسائل الصارمة التى أعددناها لاختبارها فلا يجرؤ أحد أن يقرر أن الفكر الحديث والآراء المبتكرة تفيض فى الوقت الحاضر بالقدر الذى نرجو والكثرة الواجبة ؛ ومن هذه الناحية يصح أن يكون للنهضة العلمية الإسلامية المرتقبة نتائج بالغة فى العلم وآثار محسوسة فى زيادة ذلك الفيض المرجو من الآراء والفكر الجديدة .

[illegible] المستقبل يجب أن يقوم على ضوء ما تم فى الماضى ، ومن ثم قد يكون من المناسب أن نستعرض بعض الأعمال العلمية البالغة الأهمية التى نهض بها العلماء المسلمون فى أيام عز الإسلام وسطوته . وعلى الرغم من أنه لم يكن ينتظر أن يكون فى السنوات التالية لحروب دينية عظيمة المدى مجال للتشجيع على استيعاب المعلومات والتهام المعارف ، وهضمها ، وكذلك بثها ونشرها على نطاق واسع ، فإن هذه الظاهرة التى لا يتوقعها أحد كانت من الخصائص المميزة لعصر الإسلام ، فقد رأينا كثيرا من الخلفاء كهرون الرشيد وغيره ، يظهرون فى مثل تلك الظروف العصيبة نشاطا وعطفا يستوجب الثناء نحو العلماء والدارسين من المسيحيين واليهود وغيرهم ، ويغدقون العطايا على الجامعات والمراصد والمكتبات ، وينقبون عن المخطوطات من الكتب اليونانية القيمة لكى تترجم وتدرس ، ويبذلون كل ما فى وسعهم من جهد ، ويسعون بكل وسيلة ممكنة لنشر العلم والعرفان وتأييده والعمل على نموه وازدهاره .

وسرعان ما أثمرت تلك السياسة المستنيرة الرشيدة وآتت أكلها . وليس هنا مكان التفصيل والإحاطة ، فلا نملك هنا إلا إشارة عابرة لفضل الإسلام والمسلمين على الاختراعات في علم الجبر والإضافات والتوسعات في علم حساب المثلثات وإدخال الهندسة الهندية (بعد أن أضافوا إليها علامة جديدة بالغة الأهمية وهي الصفر) . ثم إن هذا التقدم الرياضي البارع قد صحبه وسايره تقدم يناظره في علوم الفلك والكيمياء والطبيعة والأقرباذين ؛ فالبتاني مثلا الذي توفي عام ٩٢٩ بعد الميلاد قد عين بالدقة مقدار زاوية مدار الشمس (أو دائرة البروج) وطول السنة الاستوائية ومتوسط حركة الشمس ، كما أثبت إمكان حدوث كسوف أو خسوف سنوي ، وأعاد حساب قيمة مبادرة الاعتدالين ، وقد اعتمد على أرصاده عن كسوف الشمس وخسوف القمر الفلكي الإنجليزي دثورن واستخدمها في حسابه .

أما في علم الطبيعة فقد حمل لواء علماء المسلمين الحسن بن الهيثم (٩٦٥—١٠٣٨ أو ٣٩) وهو الذي حارب النظرية الفكرة التي تشبث بها معظم الفلاسفة الأقدمين والتي تقول بانبعاث أشعة ضوئية من العين إلى الجسم المرئي ، وقال هو عكس ذلك بأن الرؤيا ترجع إلى انبعاث صادر من الجسم المرئي نفسه . . وقد اكتشف أحد قوانين انعكاس الضوء ، وهو أن زاوية السقوط وزاوية الانعكاس تقعان في مستو واحد ، ودرس المرايا على اختلاف أنواع سطوحها ، ولا تزال إحدى المسائل المتصلة بها والتي حاول حلها معروفة باسمه وهي : « إذا علم موقع نقطة تبعث الضوء ، وموقع العين فكيف تحدد النقطة التي يحدث عندها الانعكاس على سطح المرآة كرية كانت أو أسطوانية أو مخروطية » .

وقد بحث ابن الهيثم قوس قزح والهالة والارتفاع الذي يصل إليه الهواء الجوي ، وكان أول من وصف العين بالتفصيل والدقة . وتدل دراساته على تصور عميق دقيق لكيفية تجميع الأشعة وتحديد موضع الصورة ، وتكبيرها وقلبها ، ولطبيعة تكون الحلقات والألوان ، وقد استخدم الخزانة المظلمة (أول أنواع الكمرا) لأول مرة ، ولاحظ أثناءه الشكل الذي تكون عليه صورة الشمس أثناء الكسوف ، إلى غير ذلك من الأعمال العلمية الباهرة التي تكون منها قاعدة إذا توافرت لأي شخص كان جديرا بأن يتبوأ مكانا عليًّا بين علماء أي عصر من العصور .

والبيروني (من ٩٧٣ إلى ١٠٤٨) مذكور ببراعته التجريبية في تعيين الكثافات النوعية بطريقة يرجع أساسها العلمي إلى أرخميدس ، فالأرقام التي وصل إليها بلغت من الدقة حداً يثير الإعجاب . وإليك بعض أرقامه عن الكثافات النوعية : الذهب (١٩٫٠٥) الزئبق (١٣٫٧٤) النحاس (٨٫٨٣) الحديد (٧٫٧٤) القصدير (٧٫١٥) الرصاص (١١٫٣٩) وهي قريبة من قيمتها الحديثة قربا عجيبا . وقد تلت هذه الخطوة من الدقة خطوة أخرى في يد الخازني الذي جاء بعد البيروني بقرن فدرس كثافة الماء عند مختلف درجات الحرارة ووصل إلى تغيراتها المحسوسة . وأكد أيضا أن الهواء يدفع الجسم الذي فيه إلى أعلى كالماء وأن يؤثر في مقدار وزنه كما يبدو لنا . وهذه حقائق تدل على صحة ما ادعاه من أنه أنشأ ميزانا دقيقا يصدق إلى ٠٫٠٠٦ من الجرام بالنسبة لثقل يبلغ ٢٫٢ من الكيلو جرام ، وهي دعوى تؤيدها كل الشواهد التي تدل على أن حساسية الميزان العلمي بلغت في ذلك العصر حدا مدهشا .

وأما أن الكيمياء مدينة للإسلام فهذا أمر معلوم معترف الجميع به ؛ وأول كيميائي عظيم ظهر في التاريخ كان جابر بن حيان الذي لا يزال كثير من كتاباته باقياً وإن كانت تفاصيل حياته غير معروفة بالتأكيد ، بل إن القرن الذي ظهر فيه صيته لا يزال موضع جدل . لكن الحقيقة التي تهمنا هي أنه أدرك بوضوح وقرر في تأكيد أن الكيمياء لا يمكن أن تستغني عن « التجربة » ، وتحوي كتبه أوصافاً واضحة لبعض تجارب يتبين منها أنه كان مفكرا خصبا وملاحظا دقيقا .

ويأتي بعد جابر في الكيميائيين الرازي الذي وصف بأنه أنبه أتباع الفلاسفة اليونانيين الذين عاشوا بين القرنين السابع والرابع قبل الميلاد ، وأجدر هؤلاء الأتباع الذين ظهروا في التسعة عشر قرناً التي تلت وفاة أرسطو بالذكر ، وقد تجلى في كتاباته الكيميائية ميل إلى الحقائق الخارجية المتصلة بالأشياء ، وإعراض عن وسائل السحر والتنجيم ، واعتماد قوي على ذلك النوع من الحقائق الذي يمكن البرهنة عليه عن طريق التجربة والاختبار ، ومن خدماته للكيمياء التصنيف المنظم للمواد الكيميائية الذي أضاف إليه شرحاً جلياً لخواصها البارزة ، التي كانت معروفة في ذلك الوقت .

وفي ميدان الكيمياء التطبيقية ، وأهم بها العمليات التي تهم الكيميائي في التعدين والصباغة والأرزاق وماشاكل ذلك ، وفي هذا الميدان أيضاً تدل المؤلفات الكثيرة المتراكمة التي خلفها لنا المسلمون على أنهم وصلوا إلى اكتشافات عديدة عظيمة جداً . ومن الجدير أن نعلم أن حامضي الكبريتيك والأزوتيك لأول مرة كان على يد الكيميائيين المسلمين . وفي القرن الثالث عشر كانت عمليات حرق ركاز الذهب والفضة واستخلاصهما وفصلهما واستخراج الفضة عن طريق مزجها بالزئبق والتحليل الكمي للسبائك — كل هذه وماشابهها كانت عمليات عادية (روتين) تجرى في دار سك النقود بالقاهرة .

كذلك علوم الجغرافيا والحياة والحيوان والتعدين والجو قد خدمها من هؤلاء الأتباع المسلمين فريق نابه موهوب ، ومن أعظم علماء الحياة في الإسلام ، ابن البيطار المتوفى سنة ١٢٤٨ ، فكتبه في النباتات والأدوية تركزت على معارف الأقدمين تمثل في مجموعها تقدماً ملحوظاً .

وهكذا يصح أن تستمر القصة ، فمسلمو تلك القرون النادرة كانوا يضعون المعرفة العلمية في المكانة الأولى من الأهمية ، وقد أدى اهتمامهم بها إلى نشوء طريقتهم الخاصة التي تتلخص في أنها « عادة عقلية تلتمس الأسباب ومزاج تجريبي يميل إلى التحقيق » .

إن ارتفاع مستوى النشاط الفكري والإنتاج وانخفاض هذا المستوى في الأمم لا يزال ظاهرة تفتقر إلى التحليل ، لكن يصح لنا أن نؤمن بأن ما قدر عليه الإنسان مرة يقدر عليه أخرى . وأن جزءاً كبيراً من البلاد الإسلامية لا يزال يفتقر إلى فرص تعليمية ، من الطراز الأول الذي تهيأ في أوربا وأمريكا قبلا ، ولو توافرت ضمنا لحاق الأمم الإسلامية بالقافلة العلمية الحديثة واستعادتها لمجدها العلمي التليد . ونحن موقنون بأن الإسلام في الوقت الحاضر عبارة عن خزان مليء بالقدرة العلمية وزاخر بقدر متناسب معها من العبقرية لا يسع العالم أن يغفله لأنه في أشد الحاجة إليه .

هذا ما نقرؤه عن الإسلام وآثاره العلمية بمجلة إنجليزية ، فهلا نجد فيه حافزاً على العمل الجدي المنتج السريع في هذا الاتجاه ؟

أحمد عبد السلام الكرداني

لون من ألوان الفكاهة المصرية

امتاز المصريون بالفكاهة الحلوة يتفننون في صنعها ويتذوقونها ويحتفلون بها. لماذا؟ لا أدري.

كما لا أدري لماذا كانت أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب أحسن الناس غناء دون ملايين المصريين.

ولماذا كانت القاهرة أقدر على هذا الفن من غيرها من مدن الشرق كله؟ لا أدري أيضاً... وليست المسألة مسألة تقدم في المدنية والحضارة، فهناك في المدن الغربية ما يفوق مدينة القاهرة مدنية، ولكن لا يجاريها في النكتة. وفي العالم مدن صغيرة فاقت في ذلك المدن الكبيرة كما فاقت مدينة رشيد الصغيرة في ذلك مدينة طنطا الكبيرة.

والفكاهة أشكال وألوان. فهناك السخرية بالفكرة، والسخرية بالأشخاص، والتنكيت عن طريق التورية بالألفاظ، إلخ إلخ.

ولوننا الذي نعرضه اليوم لون طريف له تاريخ لطيف.

فقد حدث في القرن الماضي من سنة ١٨٥٧ إلى سنة ١٨٦٣ أن كان في القاهرة شابان موسران من أسرتين كبيرتين يعيشان عيشة بوهيمية، وهما — إلى استهتارهما وصبوتهما وإفراطهما في الشراب — أديبان ظريفان، يقرآن الكثير من كتب الأدب، ويعرفان الشعراء معرفة دقيقة، ويتخيران الشعر الجيد يحفظانه ويرويانه، ولهما مجلس ظريف فيه الشراب وفيه الشعر وفيه الفكاهة، هما إبراهيم أفندي طاهر، وعبد المجيد بك نافع. فكان مما خطر لهما أن يستعرضا الأدباء والعلماء في عصرهما، ويخلعا على كل واحد منهما لقباً من ألقاب الأدباء القدماء يناسبه ويأتلف وينسجم معه.

وهي مهمة ليست باليسيرة، فلكل اسم وحيه ودلالته، ولا بد أن يتفق وحي اللقب مع الملقب به اتفاقاً بارعاً يقابله الجمهور بالضحك والاستحسان. فبعض الأسماء لو سمي به كناس كان مناسباً، ولكن لو سمي به أديب أو شاعر أو وزير لم يكن منسجماً، وهكذا... وبعض الأسماء يوحي بالظرف، وبعضها يوحي بالثقل، وبعضها يوحي بالذكاء، وبعضها يوحي بالغباء، وهكذا.

وأثار عملهما هذا ضجة في الأوساط الأدبية فأشاع فيها الضحك والمرح حيناً، والغضب والخصومة حيناً، فكانت معركة حامية لطيفة. ونحن نذكر بعض ألقابهما.

كان في القاهرة «علي أغا الترجمان»، وكان عيناً من الأعيان، فيه جلال ووقار، بعمامة نظيفة وشيبة طريفة فسمياه «القاضي الفاضل».

وكان «عبد الله باشا فكري» أديباً ظريفاً، رقيق الألفاظ، عذب العبارة، سهلاً في طباعه، [illegible] الحديث على [illegible] والنكتة في نظرته، فسمياه «ابن سهل».

[illegible] صديق اسمه «عبد الغني بك فكري» [illegible] فسمياه «الأخطل». وعرض عليهما محمود صفوت الساعاتي «الشاعر المشهور»، وكان نحيفاً قصيراً كثير الإشارات والحركات فسمياه «ديك الجن». وقد غاظه هذا اللقب لما شاع في الناس، وعمل قصائد هجاء في إبراهيم أفندي طاهر.

وكان الشيخ إبراهيم الدسوقي، الأديب المصحح في مطبعة بولاق، طويل القامة، قوي البنية، كبير العمامة، كثير الفكاهة، حلو السمر، يجلس عند الباب الأخضر لسيدنا الحسين ويسمر مع أصحابه، وله ضحكة عالية تسمع من آخر الشارع، فسمياه «بشار العقيلي». والشيخ محمد قطة العدوي، أحد علماء الأزهر، وكبير مصححي المطبعة الأميرية، كان إذا درس تمايل يميناً وشمالاً، وإذا قرأ بيت شعر مال يميناً عند المصراع الأول ويساراً عند المصراع الثاني، فسمياه «أبو شادوف».

والسيد علي أبو النصر، والشيخ علي الليثي كانا نديمي الخديو إسماعيل، وكانا معروفين بالظرف والنوادر. وكان

أبو النصر طويلا جداً ، فسمياه « ابن العماد » ، وسميا الشيخ على الليثي « أبو دلامة » إذ كان فكها مضحكا ، كما كان أبو دلامة الرشيد . وكان إبراهيم بك مرزوق أبي النفس شجاعاً جريئاً في قول الحق حتى نفى إلى الخرطوم ومات بها ، وكان شاعراً قوياً ، فسمياه « أبا فراس » . . .

ومحمود سامى البارودى ، كان أيام هذه التسمية جميل المنظر ، لطيف القد فسمياه « ابن رشيق » .

ومحمد عثمان جلال الزجال كان أديباً ماجناً يملأ القاهرة فكاهة ، فسمياه « الخليع البغدادى » .

والسيد صالح بك مجدى كان شاعراً ، وكان لونه يميل إلى السواد ، وفي عينه بعض حول فسمياه « الأحوص » .

واسماعيل افندى الخربتاوى كان نحيف الجسم جداً من أكل الأفيون ، وانحنت قامته ، وتقرفص فسمياه « ابن قرناص » .

والشيخ عثمان مدوّرع صاحب التوشيح [illegible] كان عنق كأنه يتدحرج فسمياه « دعبل » .

والشيخ حسين المرصفي ، كان كفيفاً متهماً بالزندقة ، فلقباه « أبا العلاء المعرى » ، وقريبه الشيخ زكى المرصفي كان قليل الكلام فسمياه « ابن السكّيت » .

ومصطفى كامل افندى معلم اللغات الشرقية بخان الخليلي ، كان قصير القامة ، قصير الرجلين ، بهما اعوجاج فسمياه « السمكوك » .

والشيخ عبد الهادى الابيارى ، كان يداخل الأغنياء ويحب الظهور ويتكلم دائما بنون التعظيم فيقول قلنا وفعلنا ويصغر العين في نطقه ، وأخيرا ولى القضاء في بلدة « رمة » وما حولها ، وقد اشتهرت رمة بتفريخ الدجاج فسمياه « قاضى الدجاج » .

ومحمد شراره أفندى كان ينطق بالضاد فيها صفير فقالا عليه إنه أفصح من نطق بالضاد وسمياه « أبا الشيص » .

وكان الشيخ محمد بخاتى لحية صفراء كبيرة قليلة العرض من بدايتها آخذة في العرض شيئا فشيئا إلى نهايتها فسمياه « ابن مكانس » .

وكان السيد أحمد الرشيدى إمام المعية أبيض اللون له هيبة ووقار محزز شعر الشارب كثيف اللحية يلبس فرجية واسعة فسمياه « هرقل » الخ الخ .

ولما فرغا من منح الألقاب طلب كل منهما من صاحبه أن يلقبه فلقب إبراهيم أفندى طاهر « بالشاب الظريف » وعبد الحميد بك نافع « بالصاحب بن عباد » وهكذا ملأ مصر بمعابثهما هذا مرحاً وضحكا أيام كان الضحك رخيصا[1] .

أحمد أمين

(١) كان متصلا بهذه الجماعة الشيخ أحمد الشعاوري وكان عالما ظريفا وخطاطا ماهرا أمد المكتبة العربية بكثير من الكتب القديمة التي نقلها بخطه البديع وطبعت بمطابع الحجر تحمل اسمه ، وقد كتب رسالة فيما كان يجرى في هذا المجلس والألقاب التي وضعها هذان الأديبان الظريفان وسماها « بنات أفكار وعرائس أفكار » وهي مخطوطة في مكتبة المرحوم أحمد باشا تيمور وقد [illegible]

المسكين القاسى

لم أستطع إلا أن أحزن عليه . ذلك المسكين الذى خرج إلى الحياة وحاول أن يكافح فيها ، ولكنه ضعف وتخاذل ، وخارت قواه ، وترك نفسه يخر صريعاً بفعل يده . هو طالب فى الجامعة ، نشأ فقيراً ، أو لعله من أسرة أصابتها نكبة مالية اضطرته إلى أن يحمل على ظهره عبئين ، حمل نفسه وحمل غيره . كان يحمل عبء الدراسة الجامعية لكى يستقبل الحياة مسلحاً بما يجب أن يتسلح به المرء فى هذا المجتمع الطامع الذى لا يرضى إلا عمن يحملون الأسماء . فكان همه الأول أن تكون فى يده الشهادة الجامعية التى تخلع عليه الاسم الجامعى الذى يعترف به الجميع ، ولم يرض لنفسه أن يقنع بما هو دون ذلك الاسم الرنان . فقد كان يستطيع مثلاً أن يكون كاتباً فى الحكومة بأجر مناسب يساعده على الحياة ، وكان يستطيع مثلاً أن يعمل فى شركة من الشركات ، أو أن يكسب الحياة من عمل آخر كائناً ما كان لكى يجد الكفاف الذى يكفيه ويكفى من معه من أهله حتى يستعد لوثبة أخرى إذا كانت نفسه تأبى عليه أن يقنع بمثل هذا الحظ اليسير من الحياة . كان يستطيع أن يحتال لنفسه بشىء من مثل هذه الحيل ، ولكنه كان لا يرضى لنفسه إلا أن يحمل الاسم الرنان الكريم « خريج الجامعة » وكان لا يرى الحياة جديرة بأن يحياها إلا إذا حمل ذلك الاسم الرنان .

ولكنه كان فى الوقت نفسه يحس أن عليه واجباً آخر نحو أهله الذين يحتاجون إلى مساعدته ، فكان يكلف نفسه مشقة السعى لهم إلى جانب ما يتجشمه من عناء الدراسة .

وكان فى أثناء ذلك كله موزع القلب ينظر حوله فيرى مباهج الحياة ويرى لداته وأصحابه يتمتعون بها فيذوب قلبه حسرة لأنه محروم لا يقدر على أن يصيب منها ما يصيبون ولم يقدر على أن يكون لنفسه فلسفته الخاصة ولا خطته الخاصة ، وحسب أن الحياة إذا خلت من تلك البراقع الخلابة لم يبق فيها ما يستحق أن يحيا من أجله .

هذه هى المأساة ملخصة فى سطور قليلة ، فلم يجد وسيلة للتخلص من الآلام إلا بأن يصوب المسدس الصغير إلى رأسه ويذهب إلى عالم النسيان فى ثوان معدودات . لقد حزنت عليه ولم أملك إلا أن أحزن عليه لأن المسكين كان ضحية لعنصر موزع القلب أصابه بدائه فصار هو كذلك موزع القلب غير مستقر على أساس .

فهناك من الناس من كان يستطيع أن يتخلص من الأوهام ويقنع بغير الأسماء الخلابة ، ويعلم أن الحياة أفسح وأعقل من أن تتقيد بالأسماء . هناك من كان يستطيع أن يقبل فى العمل النشيط الذى يعينه على الحياة الشريفة بغير أن يسمح للأوهام أن تمسه ، متكلاً على قوة جنانه ، واثقاً بأنه يستطيع مع مواصلة السعى أن يبلغ إلى القمة بغير أن تقف فى سبيله هذه الأسماء .

وهناك من الناس من كان يستطيع أن يتحمل العبء الثقيل ويواصل الدرس مع مواصلة السعى فى سبيل القوت حتى يصل أخيراً إلى بر السلامة ، بغير أن يسمح للزخارف المحيطة به أن تزيغه عن قصده . ولكن المسكين لم يفعل هذا ولم يفعل ذلك ، وبقى موزع القلب بين مطامعه وبين نزوات الاشتهاء ، فبلغت منه الحيرة مبلغها ولم يقدر إلا على شىء واحد ، هو أن يلتمس أقرب الطرق إلى الخلاص من المتاعب بالإسراع إلى الفناء فى عالم النسيان والظلام .

لقد كان المسكين ضعيفاً غير جدير بالحمل الذى ألقته عليه المقادير ، فإن الأحمال الثقيلة لا تحمل إلا بالقلوب الراسية الكبيرة . وما كان أجدره بأن يكون واحداً من تلك الطبقة المدللة التى تولد لكى تجد الألوف تحت تصرفها ثم تقضى الحياة فى الراحة والنعيم ! ما كان أجدره بأن يكون واحداً من هؤلاء الذين يعتمدون على غيرهم ويتمتعون

يكد غيرهم ويتطفلون على موائد الحياة بغير تفكير إلا فى أنفسهم ، فإن تحمل الأعباء الثقيلة لا ينبغى إلا أن يكون من نصيب الأقوياء ...

لم أملك إلا أن أحزن من أجل المسكين ، وكان حزنى يشيع حولى جواً من الظلام فلم يخف أمرى على صحبى ولا على من حولى من أهلى حتى لقد رابهم أمرى ، وأقبلوا على يسألوننى عن علة حزنى ، ولم أستطع أن أخفى عنهم الأمر طويلا فقصصت قصة ذلك المسكين ولم أعلق عليها بحرف لأن حزنى لم يفتح لى سبيلا إلى اللوم ولا إلى التعنيف .

واستمع صحبى إلى القصة فى صمت ووجوم ، حتى إذا انتهيت إلى نهايتها ساد سكون يشبه السكون فى ذيل الإعصار ثم تحرك أحدهم وأطرق قليلا وتنفس نفسا عميقا ، وقال لى بعد لحظات :

إنك تزعم أنك حزين من أجل ذلك الطالب المسكين ، ولكنك تقسو عليه أشد القسوة [illegible] فى الحياة دقائق كنت فيها أرجح [illegible] يبقى ومن مثل هذا الصبر إلا لمحة من لحظات الضعف الخفى [illegible] ولهذا أجد أننى أقل منك لوما وأقل منك قسوة .

كنت طالبا فى الدراسة العليا منذ ثلاثين عاما ، وكان ذلك فى أعقاب أزمة ضاقت حلقاتها حول أسرتى ، فكنت مضطرا لأن أجاهد فى سبيل الحياة مع جهادى فى سبيل الدرس ، كنت أواصل الدرس صدر النهار ، ثم أواصل السعى آخره ، وأقبل على الكتاب فى الليل بعد ساعات مضنية من العمل فى سبيل كسب القوت . فكنت لا أذهب إلى مضجعى حتى يكاد الليل ينتصف ثم أنهض بكرة لكى أستأنف يوما آخر ثقيلا مزدحما بالأعمال .

وكنت عند ذلك فى فورة الشباب أحاول أن أوارى ما أعانيه عن أهلى خوف أن يكون ذلك داعيا إلى هبوط مكانى فى أعينهم . ويعلم الله ما كنت أقاسى فى سبيل هذا من آلام نفسية كانت تذهب بى أحيانا إلى حد اليأس والثورة ، فكنت كلما أحسست نفسى تضيق ذهبت إلى صديق واحد أبثه شكواى ، وكنت دائما أجد عنده ما يزيل عنى الهموم ، ذلك هو النيل القديم الأخير الذى كان يسير تحت عينى دائما فى جلال . فكنت أحيانا أراه يضطرب مزمجرا فى فصل الخريف إذا احمرت مياهه فى وقت الفيضان ، وكنت أحيانا أراه ينساب رزينا صافيا باسما فى وقت الربيع إذا أصبحت فورته ، وكان فى كل حالاته يعيد إلىّ الهدوء ، وكأنى أسمعه يناديني « إنى عاشرت القرون الماضية كلها وأعاشر جيل هذا العصر ، وليس فى الحياة ما يستحق أن يكون سببا للشقاء ، إن فى الحياة كثيرا من المباهج التى يستطيع الجميع أن يشاركوا فيها بغير أن تكلفهم مالا » فكنت أنصرف عنه متجدد الأمل قويا على مقابلة الجهاد .

ثم كان يوم شديد الحر لم أقو فيه على الخروج إلى النيل صديقى القديم ، وعكفت على الدرس إلى أن كاد الليل [illegible] حولى فلم أر إلا ما يملأ النفس ظلاما [illegible] وتزاحمت علىّ الهموم ووسوس إلىّ الشيطان [illegible] ، فجعلت أسائل نفسى : « أية عدالة هذه التى تجمع على كاهلى كل هذه الأحمال فى حين ينعم غيرى بكل مباهج الحياة ؟ » ، وألح علىّ ذلك الوسواس حتى وجدت نفسى أقوم بغير وعى إلى درج دولاب كنت أحتفظ فيه بمسدس قديم كان لأبى عليه رحمة الله .

وأخيراً أمسكت المسدس بيدى ورفعته إلى جبهتى وقالت النفس : « ما هى إلا حركة من إصبعى ثم تزول كل هذه الآلام ! » .

وتبسمت عند ذلك ابتسامة مرة أودعت فيها كل يأسى . نعم ، فما هى إلا هنيهة حتى أكون قد خلصت من كل ما يثقلنى من الأحمال .

ولكن لمحة من النور لمعت عند ذلك أمام عينى . كانت تلك صورة أمى وصور إخوتى وصور كل من أحببت فى الحياة . وما هى إلا أن بدت لى تلك الصور المحبوبة

قدم في الجحيم

« هذا التعفن في حياتكم أيها الشبان ما هو إلا وليد الحرية الزائدة.

— كلا يا أبت! . إنما هو نتيجة الحرية الضيقة ، إن هو إلا وليد الغرائز المكبوتة التي أرادتها الطبيعة أن تعيش في الشباب ثائرة حائرة تنمو لأن تتفجر آمنة في مخارجها السليمة . لكن الشعائر والتقاليد — تلك التي فرضتها عقول السنين الغابرة على مجتمع يختلف عن مجتمعنا في ظروف المعيشة ومؤثرات البيئة — ألقت حولها قيوداً من حديد ونار ؛ فمنها ما انطلق فاراً على غير هدى ؛ ومنها ما بقي حيث هو ليذبل ويموت . وكان في كلتا النتيجتين أن اصطبغت حياتنا بالتعفن والشذوذ ! » .

وصل عند هذا الشطر من القراءة في إحدى قصص د. هـ. لورنس فألقى الكتاب جانباً [illegible]

ترى ما مبلغ الصحة في هذا الزعم بالنسبة [illegible] هذا التعفن الذي بدأ يبيت في زوايا نفسه [illegible] تولى نشاطه ؛ هذا الشذوذ الخلقي الذي أخذ يبدو في مسلكه فيحطه أهله وأنكره هو على نفسه ؟ . وهو يعيش في هذه الأشهر الأخيرة كالذاهل تترادف الأيام فلا يكاد يحس حلاوتها وقد توفرت لديه أكثر أسباب المسرة من شباب ونباهة ومال . وإن أشد ما يؤديه هذا الفراغ الذي أخذ يحس به ، فراغ ممل قاتل انسرب إلى قرارة النفس على شكل لم يعهده إبان دراسته في الجامعة .

ترى ما الباعث ؟ ما السر ؟ ما السبب في هذا العارض المؤذي ؟ .

ألعلها العواطف الخامدة والنزعات والغرائز المكبوتة كما يزعم صاحب هذا الكتاب الذي لم يفرغ من قراءته بعد ؟ ألعلها المرأة ؟ ألعلها حاجته إلى النساء بالأحرى ؟

لكنه لا يذكر أنه شعر بحاجته إلى النساء ، طيلة حياة الدراسة وقد كن ملء بصره وسمعه . كانت سلوى تشاطره مقعد الدراسة ، وكانت جورجيت رفيقته في المختبر ؛ وهناك ذلك الرهط من الأوانس اللواتي كان يتبادل وإياهن كتب المطالعة ويشترك معهن في برامج نادي المناظرة ؛ هناك الفتاة [illegible] ذات الفم الدقيق وتلك العراقية الحسناء الطالبة في قسم الأدب الإنجليزي وماري (ماري الجديدة) كما كان يدعوها ، ولقد كانت شرقية نشأت في الدنيا الجديدة كم لامس خده خدها وضم خصرها مراقصاً في حفلات نهاية الأسبوع . كان يراقصهن جميعاً ويمازحهن ويرافقهن إلى دور السينما وحفلات الموسيقى وإلى المقاهي الجميلة في

حتى تخاذلت ذراعي وفترت همتي وضعفت عن تحريك إحساسي ومِلت على الكرسي وأغلقت عيني حائراً أستعيد الصور المرعبة التي كنت أستعرضها في الخيال .

ثم تمتمت قائلاً : « حتى هذا الموت لا أستطيعه ! إن حياتي ليست لي فأتصرف فيها لكي أتخلص من الآلام ! »

وقمت إلى الفراش بعد حين وأسلمني النعاس أخيراً حتى طلع الصباح .

وجاءت أمي تحييني تحيتها المعتادة فنظرت إليها وابتسمت وسألتني عن صحتي فقلت لها إنها بخير .

ثم قفزت من فراشي وأنا أتشمم وحمدت الله على أنني لم أكن سبباً في طعن هذا القلب العزيز تلك الطعنة القاسية التي أوشكت أن أسددها إليه في ليلة الأمس » .

وصمت الصديق لحظة ثم قال : « إني حزين مثلك من أجل هذا الشاب الذي لم تسنح له صورة أمه وصور من يحب في مثل تلك اللحظة القاصمة . إنه مسكين لأن القضاء لم يرسل إليه النجدة في اللحظة الفاصلة ، ولو سنح له نور المحبة عند ذلك لما وجد اليأس إلى قلبه من سبيل » .

محمد فريد أبو حديد

ضواحي المدينة ، ولكنه لا يذكر أنه شعر نحوهن بأشد من رغبته في أن يداعب أذرعهن وأن يطبع قبلة خاطفة على شعورهن . وكان سيد أسبابها الاتصال العفيف الذي يرضى عنه العقل والقلب والضمير . ولعل هذا الاتصال كان دون سواه الحافز لذلك النشاط الذي عرف عنه في الجامعة . كان يدرس كثيراً ويلهو كثيراً . كان عضواً في نادي المناظرة وكان يشترك في تحرير النشرة الشهرية ، وكان لاعباً بالكرة وسباحاً وعداء . وكان حريصاً على أن يتذوق الفن الرفيع في الحفلات الموسيقية التي كان ينفر منها أول الأمر ولا يؤمها إلا رغبة في أن يتنسم عبير جوها المشحون بالفتيات الجميلات . حتى إذا كشفت له الموسيقى الكلاسيكية عن نواح عملية في إرهاف الحس وتنمية الشعور أصبحت جزءاً متمماً لثقافته . ولقد ما كان يبعث هذا النشاط في نفسه من غبطة صامتة .

وكأن تحولا كاملا قد طرأ عليه [illegible] لا [illegible] شيء ولا يؤلمه شيء ، كما لو أن الحاجز [illegible] أصبح لا يدرك حقيقة موقفه من نفسه ، ووقفة كالطفل الفزع يميل مع كل ريح وأخف ريح ! ... وأكبر الظن أن هذا التحول ما هو إلا وليد هذه البيئة المحافظة التي نشأ فيها والتي لم يشعر بوطأتها عليه إلا بعد أن تفتحت آفاق إدراكه على نواح في الحياة كان يجهلها فكان لا يؤمن بها . كان والده — مثلا — كثيراً ما يردد قول الإمام علي : « النساء شر كلهن وشر ما فيهن الحاجة إليهن » ولكن اختباره في الجامعة أقنعه أن الواقع غير ذلك ! . وأن النساء الرشيقات النبيهات سحر حلال كلهن وأطرف ما فيهن الاتصال العفيف بهن .

ولقد تغيرت فعلاً نظرته إلى النساء والحياة بأجمعها .

كان مثلا ، قبل أن تتصل حياته بهذا الرهط من فتيات الجامعة ، يشتهي من النساء أموراً أصبح لا يستسيغها ذوقه ويكاد يمجها وينفر من اشتهائها . كان حتى يلمح من بعض نساء المنازل المجاورة يلابس النوم على الشرفات في ساعات الصباح الباكر تسري في جسمه موجات متلاحقة من الحرارة والبرودة ... حتى مرأى خادمتهن الزنجية وهي تنظف جوانب غرفته كان يكفي لأن يجري في نفسه نزوات خبيثة . فتحت الجامعة كل أو لكل هذه المشاعر . وها هو يشعر كأن هذه الرغبات تعود فتنتابه الآن حين استقر في هذه البيئة التي استقر فيها الآن والتي كادت تنفصم عرى الألفة بينه وبينها .

* * *

وحاول أن يرفه من نفسه فاستسلم للهو ، ولكنه ما جنى إلا متعة زائفة لم تملأ ولو قليلاً من ذلك الفراغ الذي يجد بعمراً أكثر جوارحه . حتى السباحة رياضته المحببة فقدت [illegible] . كان من قبل يلازم الماء أكثر الوقت ، يقفز من فوق [illegible] الأمواج الزاحفة على الرمال الفضية ، [illegible] الساعات منبسطاً على الرمال الحامية مسلماً [illegible] السماء — إلى أشعة الشمس المحرقة ، [illegible] عارياً . وكانت تملكه رغبة قوية تلح عليه أن يلتهم بناظريه أجسام النساء بشكل لم يعهده في نفسه منذ أمد بعيد . ما أكثر ما كان يستحم في حمامات الجامعة مع زمل من الزوار عرفهن أكثر من هؤلاء الأجنبيات رشاقة ووسامة ، ولكنه لا يذكر أن عينيه اعتادتا التطلع إلى أجسامهن في أكثر من نظرة بريئة عابرة .

وخيل له في غير إسراف هذه الملاهي التي تعني في إعدادها هؤلاء اللاجئون من أواسط أوربا والتي هي أقرب الملاهي ، الذين حلت قلوبهم من سامي العواطف فاحتلتها صغائر الشهوات . والحياة في هذا الوسط من المجتمع نضال قوي حتى بين دلال النساء وشهوات الرجال ! وهذا النفر من فراتن هنغاريا ورومانيا نوع من الجنس البشري له ميزات وخصائص فريدة : راقصات ، ومغازلات و[illegible] ، ومثلات لذ ... اجتمعت لديهن الفتنة وقسط وافر من

الذكاء والثقافة فتولد فيهن اعتداد فى النفس أصيل ، وكادت تنعدم لديهن مقاييس الأخلاق فعرفن كثيراً من مواطن الضعف فى الرجال . وهو لم يأنس فى نفسه ضعفاً للناشئين ، وله من وسامته ولباقته وكرمه خير سلاح ، لكنه ترفع عن أن يدخل فى حرب مع النساء ، وهو الذى خبر فى ظلهن أياماً مليئة بالطمأنينة الروحية وبالرضا والغبطة .

* * *

أم ترى الباعث على هذا التطور هو هذه الفترة من عمره التى يمر فيها الآن والتى لا غنى للرجل فيها عن امرأة وقد فكر فعلا فى الزواج . ولكن رأياً تكون فى صميم تفكيره ما فتىء يردده لوالدته حين يسران اليه رغبتهما فى أن يرياه أبا لأطفال جميلين ، وهو أن الزواج ليس هو اللذة الجنسية كنتيجة فى ذاتها ، إنما الزواج هو الألفة الوطيدة والاعجاب المشترك والصداقة المتينة ، هو اشتراك فى الآراء والنظرة إلى الحياة وتجانس فى أكثر الميول والرغبات .

ولشد ما رغب فى أن يتصل بهؤلاء الفتيات اللواتى يتزاورن وشقيقاته فلعل إحداهن تصادف مدخلا إلى عقله وقلبه . ولكن أنى منه ذلك وقد شأن محافظات شد ما ينفرن إلى ما يجتذب رجالا مثله ، يبدون فى حجبهن كالوطاويط أو كممثلى أدوار الشياطين فى الأوبرات الإيطالية وينفرن من الرجال كما تنفر العصافير من مرأى القطط .

وتاق لأن يتصل بالنساء ، لا ليشبع شهوات خسيسة فى نفسه ، ولكن حنينا لذلك العبير النسوى اللطيف ، وإن الحنين والذكرى لأفضل ما تخلف من وطأة الحاضر المر .

وتنهد قليلا ثم نهض متثاقلا ليصلح من هندامه ، فقد أذن ميعاده مع صديقه فى النادى . وسمع صوت سيارة تقف . وتعالت أصوات شقيقاته من ردهة المنزل مرحبات بحرارة ظاهرة . واقترب من النافذة يدفعه الفضول لأن يسترق النظر : هيه .. بدرية .. ابنة خالته ، الطالبة فى دار المعلمات . وتذكر ما قالته أمه منذ أيام من أنها ستقضى عطلة الصيف عندهم .

إذاً فستشيع فى المنزل جو لطيف وستتجاوب فى أنحائه نغمات عزفها على البيانو . . . شوبان ، موزارت ، ليسزت . وستحدثه عن الكتب التى قرأت . وسيحدثها عن لورنس ، وبكين وشلى ، وعن مارسيل بروست .

واتكأ على النافذة يسرح النظر فى الأشياء التى كانت لا تكاد تلفت نظره والتى بدت الآن كأنها تعج بالحركة والحياة . وغمره إحساس بهيج وسرى فى جسمه شىء كان قد فارقه منذ شهور . . هو مزيج من النشوة الصامتة والراحة والدفء الذى أخذ يشع فى قلبه رويداً رويداً .

وأحس كأنه أصبح فى وفاق مع نفسه ؛

وشعر كأنه انتشل نفسه من الجحيم .

(تمت) محمد صليبي

ظهرت الطبعة الانجليزية لكتاب

THE TRAGEDY OF MAYERLING

بقلم الأستاذ محمد عبد الله عنان

وهو يعالج مأساة ملوكية شهيرة بطلها الأرشيدوق رودلف فون هبسبورج ولى عهد النمسا ويصف حياة البلاط الامبراطورى فى أواخر القرن الماضى .

مطبوع طبعا جيدا ومجلد وله غطاء أنيق .

ومزين بعشرين صورة من المتحف الامبراطورى

ثمنه ٤٠ قرشاً و ٥٠ قرشاً عدا البريد .

ويطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر ومكتبة النهضة وباقى المكاتب الأجنبية الكبرى .

التعليم الجامعي

— ١ —

منذ بضعة شهور أذاعت محطة الإذاعة البريطانية سلسلة من الأحاديث في نواح مختلفة من مشكلة التعليم الجامعي ، دعت إلى إلقائها نخبة مختارة من أساتذة الجامعات الإنجليزية ومديريها . وقد اطلعتُ على هذه الأحاديث ، وجمعتُ خلاصتها في هذا المقال :

١ — <u>ما هي الجامعة ؟</u>

من المعاهد العلمية ما يطلق على نفسه اسم « الجامعة » فماذا يعني هذا المعهد بهذا الاسم ، وأي مستوى علمي يتطلبه ؟ لا شك أن الجامعة تختلف في معناها عن المدرسة أو الكلية ، رغم أنها تشتمل في أكثر الأحيان على عدد من الكليات .

كان معنى الجامعة في أول الأمر اتحاداً أو جمعية تمنح لها سلطات معينة . وما زال هذا المعنى قائماً إلى الآن ، لذلك نقول إن السمة التي تميز الجامعة هي مقدرتها على منح الدرجات العلمية . ففي انجلترا نستطيع أن نقول إن كمبردج وأكسفورد ولندن بها جامعات ، أما نتنجهام وهل ففيها كليات جامعية ، وذلك لأن هاتين الأخيرتين لا تستطيعان أن تمنحا درجات علمية ، وإنما يحصل عليها الطلبة من جامعة لندن . هذه نقطة قانونية ولكنها تنطوي على مسألة هامة . الجامعة جماعة من المعلمين والعلماء اعترف لهم بسلطة مستقلة . لهم أن يضعوا برامج التعليم ، والمستوى المطلوب — وهو أهم من البرامج . هم الذين يضعون الامتحانات ويظهرون نتيجتها . وهم الذين يحددون ما يطلب من الطلبة الذين يدرسون — بعد نجاحهم — ملائمين لتعلم موادهم كأساتذة أو دكاترة .

هذه إذاً هي حجة الجامعة : كرامتها وسلطتها . لها في ميدانها سيادة لا تنازع . ولكن من أين تستمد الجامعة هذه السلطة ؟ وأي مستوى يجب أن يبلغه المعلمون والعلماء كي يظفروا بهذه السلطة ؟ الجواب على ذلك أنه ينبغي لهم أن يكونوا من المعلمين والعلماء الذين يوسعون آفاق المعرفة . لا يكفي أن يكونوا معلمين تنحدر إلى الطلبة عن طريقهم المعارف يستمدونها من غيرهم ، ومن مؤلفات وبحوث الآخرين . يجب أن تنبع المعارف على أيديهم هم أنفسهم ، وأن يكشفوا عن أشياء لم تكن معروفة من قبل ، وأن يلقوا ضوءاً جديداً على مجاهل ظلت مظلمة أحقاباً طويلة . يجب أن يكون لكل أستاذ بالجامعة علم أو فرع من فروع العلم يستطيع — وهو واثق — أن يقول فيه « لا يهمني ما جاء عنه في الكتب ، ولا يهمني ما يقول فيه الثقات ، فقد تبين لي — ولا أقول لأني أظن — أنهم مخطئون في هذا البحث » ويستطيع أن يقول الطلبته — وهو على يقين — « هذه العبارة في ذلك الكتاب سليمة لا غبار عليها — فقد جربتها بنفسي » . الأستاذ الجامعي كذلك يعترف ... بأن ... الجامعي مكتشف وليس موصلاً ، ولذا ... يحمل ... ميزان علمه ، يعرف الزائف من الصحيح ، كما يميز بين المنكر والمقبول .

وأعود فأقول : الجامعة عبارة عن جماعة من المعلمين والعلماء ذوي نفوذ علمي ، لأنهم هم أنفسهم يضيفون الجديد إلى كنوز المعرفة . ويتبع ذلك أن يكون المعلمون الجامعيون أحراراً في تحديد ما يراد معرفته ، وفي تعليم ما يعتقدون أنه الحق وما يبدو لهم أنه الحق . وليس لأية سلطة أخرى — مهما يكن نفوذها في الميادين الأخرى — أن تبين لهم ما يعلمون ، وأن تحدد لهم ما يبدون وما يخفون .

مثل هذه الجماعة جديرة بأن تصبح عضواً في مجموعة الجامعات العالمية الكبرى . فهذه المجموعة على اختلاف الأمم والأجناس واللغات — تكون جماعة واحدة يتبادل أعضاؤها نتائج بحوثهم ومكتشفاتهم وكلهم مشتغل بالبحث وزيادة معارف الإنسان .

وعلى الجامعة في الوقت نفسه واجب آخر نحو الأمة التي تنشأ فيها ، وذلك أن تكشف عن المعارف المختلفة التي تحتاج إليها هذه الأمة دون غيرها من الأمم . ومن الخطأ أن يظن أن الجامعات جميعاً عليها أن تتم أو تبحث في نفس الموضوعات . أجل إن هناك من الموضوعات والدراسات ما يصح اعتباره أساساً للعلم الحديث ، ولازماً لفهم الحياة وأغراضها . وهذه الموضوعات وهذه الدراسات يجب أن تكون جزءاً من برنامج أية جامعة من الجامعات . ويكون هذا الأساس أشبه ما يكون بالهيكل الذي يجب أن يملأ فراغه بالمعارف والبحوث التي تهم أمة معينة دون غيرها من الأمم . فالجامعات تكون من نموذجها جامعة دولية أولا . غير أن كلا منها من جهة يجب أن تخدم المجتمع الذي نشأت فيه وتعنى بحاجاته الملحة من طريق البحث المبتكر .

وهكذا يجب ألا ننسى أن الجامعة ليست مجرد جماعة من العلماء الباحثين إنما هي كذلك جماعة من الطلاب والعلم ليس كنوزاً تدخر . إنما هو كنوز تنشر ، ولا تنشر إلا بالتعليم . ومن واجب العلم أن يمنح طلابه شيئاً أكثر مما يتصل بمهنته . على الجامعة أولاً أن تؤهل الطلبة للعمل فيها ، وعليها بعد ذلك أن تقدم فلسفة أو نظرة خاصة إلى الحياة ، وأن تدربهم على فن الاجتماع . أما الغرض الأول فقد تحدثنا عنه من قبل وقلنا إن الطلبة يتلقون العلم على علماء باحثين . أما الغرض الثاني — فلسفة الحياة — فيحصلون عليه عن طريقين ، الأول أن يتعلموا إلى جانب — أو قبل — علومهم المهنية موضوعات عامة كالأدب أو التاريخ أو الفلسفة ، والثاني عندما كانتهم غيرهم ممن يدرسون مواد غير موادهم . حتى يكون بالجامعة تبادل في الآراء بين الطلاب يوسع آفاقهم الفكرية في الفروع المختلفة ، بين عالم الطبيعة مثلا والفيلسوف أو طالب الأدب ، بين الاخصائي وطالب الفلسفة أو الأدب ، وبين طلاب العلوم النظرية والعلوم التطبيقية ، وغير ذلك .

أما الغرض الثالث فيظهر في الطلبة بسكناهم معاً في منازل خاصة بإقامتهم (الداخلية) ، وبمساهمتهم في جمعيات الطلبة ، وهي من أهم المميزات للجامعة الحديثة : كجمعية المناظرات وجمعية التمثيل ، والجمعيات السياسية والأدبية والفنية والعلمية والرياضية ، أو بمساهمتهم في اتحاد الطلبة الذي يمكن الطلبة من حكم أنفسهم بأنفسهم ، وهو الاتحاد الذي يمثل أمام إدارة الجامعة وجهة نظر الطلبة . وإذا كان من واجب العلم الجامعي أن يتعلم حتى يكون من الباحثين ، فكذلك الطالب الجامعي ينبغي أن تتاح له مبدأ تمكنه من أن يحكم نفسه بنفسه .

من كل ما تقدم نستخلص أن الجامعة منبع العلم الخالص والآراء الجديدة ، ويجب أن تكون على صلة وثيقة بالحاجات العامة للمجتمع الذي تقوم فيه زميلة للجامعات في البلاد الأخرى ، ومن طريق هذه الرسالة تقوم كالقنطرة التي تحمل عليها إلى المجتمع الآراء المستحدثة والعلم الجديد . ولا يجد الشباب مكاناً خيراً من الجامعة — على هذه الصورة — يتعلمون فيه كيف يخدمون المجتمع . يجب أن تصطبغ الجامعة بالصبغة القومية . فتكون الجامعة الانجليزية انجليزية والأمريكية أمريكية وهكذا .

وللجامعة مهمة أخرى إزاء المجتمع الذي تقوم فيه . ويعاونها في أداء هذه المهمة أن تبعث بخريجيها المثقفين بروحها إلى المدارس الثانوية والابتدائية المجاورة ، يعملون فيها وينشرون أحدث النظم والآراء . ويجب كذلك أن يعتقد الشعب أن بالجامعة رجالاً لا ينتمون إلى حزب معين ، ولا ينزلون إلى ميدان السياسة . رجالاً لهم في الحياة نظرات واسعة موضوعية إنسانية . وتستطيع الجامعة أن تكون مصدر نور وعرفان لا إلى طلبتها فحسب ، بل كذلك إلى أبناء المنطقة المجاورة . وسنفصل الكلام في هذه النقطة فيما بعد .

وعلى أساتذة الجامعة — فوق ذلك — أن يؤلفوا الكتب الخالدة التي تبقى على وجه الزمان، وتؤثر في مجرى التاريخ، وألا يكون رائدهم في ذلك كسب المال، أو التظاهر بالثقافة، أو النفوذ الاجتماعي، وإنما منادمة الحق وإظهاره.

٣ — الحياة الاجتماعية في الجامعة:

أول ما يُشعر الطالب أنه عضو في أسرة الجامعة أن يتلقى رئيسها الخاص. ثم يقوّى عنده هذا الشعور بعد ذلك إقامته في الجامعة، يأكل وينام ويعمل ويلعب مع زملائه. ثم تلك الدعوات التي يوجهها إليه الأساتذة لتناول الشاي أو للاحتفال بمناسبة ما في دورهم الخاصة، وتلك الاجتماعات المسائية مع الخرباء، التي يحتك فيها عقله بعقول الآخرين فيزداد حدة وضياء. ويجب أن تكون لكل طالب جامعي حجرته الخاصة يستذكر فيها دروسه ويدعو فيها إخوانه لتناول الشاي أو السمر. كما يجب أن تخصص حجرات خاصة للصحف والمجلات، والموسيقى، والكتب، والألعاب؛ وأن تُلحق بها أمكنة للعبادة، وأن تحاط بالحدائق، وتمتد بعدد كاف من ميادين الألعاب. ومن واجب الأساتذة أن يشتركوا مع الطلبة في الساء في وجبة العشاء، وأن يجلسوا معهم فترة بعد العشاء يتسامرون؛ يجب أن تحمي الجامعة من الحدث الذي طغت عليه الآلة وأضعفته عما بث في الناس من روح العجلة.

وليست بنا حاجة أن نذكر فائدة التمثيل والمحاضرات والمناظرات، وحفلات الرقص، وجمعيات الرحلات وغير ذلك. وفي المدارس الحسنة في مرحلة التعليم الجامعي ما يحفظ المرأة مكانتها في المجتمع. ولما كانت الجامعة ترمي إلى تكوين الشخصية من جميع نواحيها وجب أن تكون بها عدد من المربين يكفي للاشراف على الطلبة. وقد يكون هؤلاء المربون من المختصين في المواد أو غير المختصين. لأن العلاقة الشخصية بين المربي والمربى من أهم مكونات الشخصية.

وأرى ألا تكتفي فرق الألعاب الرياضية بالمباريات المحلية، بل أن تقوم كذلك بمباريات دولية مع جامعات الأمم الأخرى. وليس هنا مجال التحدث عن فوائد الألعاب والمباريات.

وقد يكون من اللازم أن نتحدث بالتفصيل عن اتحاد الطلبة. ولنأخذ مثالا لذلك ما يجري في جامعة ردنج بانجلترا. ينتمي طلبة الجامعة جميعا إلى اتحاد الطلبة، ولكنهم لا يعقدون اجتماعاً عاما أكثر من مرتين أو ثلاث في العام، وذلك حينما تعرض للطلبة مشكلة عويصة. وينتخب الأول طالبا ليكوّنوا أعضاء «مجلس الطلبة التمثيلي». ويمثل هذا المجلس آراء الطلبة تمثيلا حقا. ويجتمع أعضاء هذا المجلس باطراد مرة كل ثلاثة أسابيع، ويناقش كل مشكلة تجد، ويراقب أعمال الجمعيات الفرعية المختلفة، وكما أن برلمان الأمة لا بد له من وزراء ومصالح مختصة يعالجون بعض الحياة النابعة، فكذلك مجلس الطلبة — على نطاق ضيق — ثلاث جمعيات دائمة تختص كل منها بناحية مقبلة من حياة الطلبة، مثل المساكن، والألعاب والملاهي، والصحف والمجلات، والخدمة الاجتماعية، والجمعيات العلمية، وما إليها.

والاتحاد يشمل — كما ذكرنا — طلبة الجامعة جميعا، وعلى رأسهم ضباط الاتحاد، عليهم رئيس، يعاونه وكيل، وله أمين للصندوق، وسكرتير أو اثنان، وكلهم من كبار الطلبة، وهم يصدرون قراراتهم المالية والتنفيذية كلما اقتضت الضرورة، ويمثلون طلبة الجامعة جميعا، أمام الجامعة في مسألة التأديب والنظام، وأمام الحكومة المحلية في كل ما يختص بحركات الشباب السياسية والدولية. هي حكومة الطلبة للطلبة من أجل الطلبة. ويجد الطلبة في عضوية الجمعيات الجامعية مجالا للتدريب على التنظيم والابتكار واحترام أولي الأمر والنفوذ.

(يتبع) محمود محمود

عند الشاطئ الآخر

وقف الملاح على سلم الوردة بضفة نهر النيل، وزورقه راس عند أسفل الدرج تؤرجحه الأمواج في يوم ريح. ونزل الراكبون في عبور النهر وأخذوا مقاعدهم في الزورق. ولما كادت المقاعد أن تمتلئ بهم صاحوا بالملاح لينزع المرساة ويقلع. فنزل الملاح متباطئا وعينه إلى أعلى يود المزيد من الراكبين، وقضى في التأهب للإقلاع أطول وقت، ثم أقلع.

وخفق الشراع مرتين أو ثلاثا في الريح الناشطة، ثم شدت أطرافه وانبسط وجذب الزورق وانطلق به كجناح طائر. وجلس الملاح عند السكان[1] وجلس ابنه عند المجداف.

قالت الريح في صوتها المدوي: «ها هو الزورق يغادر الشاطئ، ومن للزورق سواي؟! من يمضي به إلى غايته إلاي؟!... إليّ!... إليّ!... أيها الزورق الخفيف. إن وجهتك هي وجهتي، أليس كذلك؟ [illegible] وهل تخطر لك وجهة سواها! وهل [illegible] القصد والإدراك يتجه إلا وجهتي! ها هو ملاحك والذين معه ينظرون إلى الشراع في رجاء وثقة. اعتمدوا عليّ اعتمادا مطلقا فسأمضي بكم في الاتجاه السديد...».

وقال التيار بصوته الهادئ في قوة: «ها هو الزورق غادر الشاطئ، ومن يمضي به إلى غايته إلا أنا؟!.. تعال!.. تعال!.. يا زورق المرح. إن وجهتك لا شك هي وجهتي، فلا تخطرن لك وجهة أخرى ببال. إن كل وجهة أخرى ضلال. ها هو ملاحك والذين معه ينظرون إلى الماء في رجاء وثقة، اعتمدوا عليّ اعتمادا مطلقا فسأمضي بكم في الاتجاه السديد...».

وعصفت الريح دافعة بالزورق في اتجاهها، وهدر التيار دافعا إياه في اتجاه آخر، فاضطرب الزورق وارتج في حيرة وخوف.

وسمع من مؤخر الزورق صرير ضعيف هو صوت السكان، وتكلم في غير حماس قال: «أيها الزورق! إن اتجاهك لا شك أمر يعنيني، وليس من حقي أن أتكلم في هذا الشأن لولا رغبتك التي أحسستها. لا موجب للحيرة ولا لقلق كبير بل لما تغريك الريح أو يغريك التيار. إن حركة صغيرة مني كافية لأن تدور بك إلى هذه الجهة أو تلك. لكني وايم الحق لا أعرف إلى أي جهة نحن ذاهبون. لا شك أنك ستزدريني لاعترافي بجهلي، ولن تلقى أملا لأنك ثقة تقل بنفسي، لكن إرادة لا أعلم كنهها تحركني فأطيعها، فإن درت بك يمينا فاليمين هو الاتجاه السديد، وإن درت بك شمالا ففي الشمال السداد، لأني أثق بتلك الإرادة ثقة مطلقة، وأستوحيها بإخلاص، وأتبع وحيها في طاعة، وأشعر بأني أؤدي واجبي وهذا حسبي».

ولكن المجداف في ذلك الوقت مستلقيا على ظهر الزورق أرسل قهقهة وقال: «لا شك أن كلامي في هذا الموضوع [illegible] على هذا الزورق نكتة تعجبني [illegible] من الريح [illegible] قصدها وحماستها، ويعجبني مثل ذلك من التيار، لكن وجهتيهما مختلفتان، ولست أعرف أيهما الصواب. ويعجبني من السكان تواضعه رغم أنه في هذا الزورق عامل خطير، لكن غموضه يضرني وأضيق ذرعا بأسلوبه في التفكير. أما أنا فمبدئي لا غموض فيه، ومنطقي واضح جلي: إن هبت الريح وتغلبت فسأضرب في الماء للحد من طغيانها، وإن تغلب التيار فسأضرب مكافحا إياه. لن أدع الريح تذهب بالزورق إلى وجهتها رأسا، أو التيار يحمله في اتجاهه تماما. ستكون نتيجة جهودي أن يسير الزورق صوب الغرب على ما يظهر، لكن اتجاه الزورق في الواقع لا يشغل بالي كثيرا، وهو أمر يعنيني التفكير فيه، والمهم أن أقاوم الطغيان أيا كان، وفي هذا لذتي الكبرى وكفى».

وبعد الزورق عن الشاطئ، وصار في سواء اللجة ودوت الريح في ولولة حول الشراع، وجرش التيار في

(١) الدفة.

سورية وفرانسة

أرى دموع مصر تغرق في العيون حزناً على سورية ، وأرى أهل مصر يستقبلون أخبارها بنفوس متلهفة حزينة ، تثور ثائرة بعضهم فيندّدون بفرانسة وبربرية جنودها في سورية ، ويكتب آخرون شعور نفوس متأججة يهدئون ثورة يريدون أن ينشبوا جذوتها حتى يدمو المنادى فتشمل ، وإذا مصر أكثر الناس حماسة لسورية ، وإذا هي تسعفها بأكثر مما تريد .

لك الله يا مصر ! إن في سورية اليوم أناساً لا تلهيهم تجارة ولا بيع ولا ولد ولا مال عن الذود عن حياض الوطن ، وإن في سورية أناساً لا ينامون ، وإن فيها لمن قضت دورهم فلا يهجعون . ألم يكونوا أمس مطيعين ، والقلب بالحلم مؤمنين بالعدل . ألم يعطوا الاستقلال من عهد قريب ، ألم يكونوا من الشر خائفين ، [illegible] إليهم ويقول : اسكتوا عن جيوش [illegible] واقتحموا أرضكم الطيران يحتلها وصدور [illegible] لتروعها وأسواقكم لأبد تسيّرها . قالوا : تالله يكبر علينا الاحتلال القاهر ، وتأنف نفوسنا الثقافة الثائرة ، ولا ترضى الشركة الغاصبة . أتريدوننا على أن نشاهد وأنتم تقضون . أتنهبون منا الهبة وأنتم تهددون ؟ أتطلبون منا المنافع وأنتم لا تنظرونا عاملون . قال الشر : اسكتوا فالجيوش القادمة إلا شرذمة تحل مكان شرذمة . قالوا : قد تصدق ، ولكن ما بالها تصدق دون استئذان ؟ أتعتقد أن الأرض لها تحوسها أنى شاءت . ألا . لا . إنها أرض حرة عفيفة ، تضيف من كرم ، ولكنها تأبى العنف . اذكروا يوم محنتكم لو كنتم تذكرون . هل قال لكم قائل من سورية قولاً مشيناً ؟ ألم يعزكم المحزون ، ويهدئكم الهادئون ؟ لقد شهدتم من العطف ما أنسى نفوسكم آلامها . وعلام كنا نعطف ، ألأن سلطانكم كان يملأ الأرض رهبة ؟ أم لأن جيوشكم كانت تخيف ؟ لا ! كنا نعطف على شعوب ثاروا عندا وأناس أصيبوا في بلادهم وحضارة أسفنا على خرابها .

ثم تريدون منا اليوم ما لم تطلبوه في الأمس ، حيث كنتم إلى العطف مفتقرين ! أقبح عندكم حسن نفوسنا أم شجعكم ضعفنا ؟

لا تهينوا الضعف ، فالمرة تشد أزره ، ولا تحتقروا القلة فالشجاعة تكثر ، ولا تزدروا العزلة من السلاح ، فالقلب أكبر سلاح .

لقد عرفتمونا من ربع قرن ، أعهدتم بالكم منا بقوتكم ، أم استكنا لكم بضعفنا ، لقد بلونا بكل شيء ، أما أنتم على إبائنا أولان لكم قيادنا ؟ أما عرفتم أن سورية تضطرب [illegible] إهانة وتثور لأصغر ضغط .

[illegible] أن تذكروا أن الشرق صادق في ساعة [illegible] الجور ، لين عند طيب القول ، وفي [illegible]

[illegible] تفعلون ، قرأنا في كتبكم ومدارسكم وجامعاتكم أن الأمر ليس للقوة بل للحق ، وأن الإنسان للإنسان ، هو مثيله وأخوه ، فما بالكم تطلعون علينا بما يخالف تعاليمكم ؟ أنسيتموها أم كانت أسطراً تم تحيث إلى يوم يبعثون .

أليس فيكم العاقلون الرشيدون حيث يذكرون قومهم — وقد كانوا هنالك شهوداً — أن أناساً من أواسط أوربة ملكوها كلها عنوة منذ حين ، وظنوا أن لا دافع لهم ، فطغوا وبغوا ، وذاقت فرانسة شديد حكمهم . ثم إذا هم يزلون ويندثرون ، فرقهم عزم النفوس الأبية ، وشتتهم صبر النفوس التي لا تستكين . أكان ظلمهم لهم مجدياً ، وتخريبهم المدن لهم نافعاً .

ألا اعقلوا يا قوم ، إذا كان لكم أن تبلغوا أمراً من سورية فليس بالعنف ولا بالتخريب .

لئن رفضت التعاهد معكم، فذلك لأن لكم معها عهوداً نقضتموها. ألم ترجو منكم العهد قبل الحرب، فأعطيتموها إياه بعد حبس طويل ثم إذا أنتم تنقضون، أو لم تمنحوها الاستقلال خلال الحرب ثم ها أنتم أولاء تقولون إنه غير مشروع؟ كيف تأمن لكم وهي لم تنل من عهودكم شيئاً، وكيف تقدم على العهد معكم، وأنتم لبنايتها بالقنابل تهدمون.

إن في سورية رجالا عاهدوا الوطن على ألا يستكينوا للظلم، بل في بلاد العرب أمم وحكومات لا تنقصها الشجاعة ولا تعوزها القوة، إنها لا تنسى عهد الشام عليها وإنها ليهدأ كثيراً ثم تغضب، حتى إذا غضبت كانت غضبة مضرية لا يردها شيء.

لقد أنت بمصر والعراق والحجاز وبلاد العرب أجمعين، إن لكم في الشام إخواناً يهلكون.

يوسف العيشي

تصحيح

في القسم المنشور في العدد ٣٢٧ من مجلة «الثقافة» الغراء من وصف الأودية الفاضلة بنت بطوطة لرحلة السائح الفلورنسي فرسكو بالدى إلى مصر وفلسطين في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، ورد اسم مدينة (كذا) رامة في فناء الخليل، فقلت السكاتبة البارعة أن رامة هنا محرفة من رام الله ووضعت هذا الاسم الأخير بين قوسين تفسيراً للاسم الأول، وكل من له إلمام بجغرافية هذه البلاد يعرف جيداً أن رام الله تقع إلى الشمال من بيت المقدس، بينما كان السائح الإيطالي يتحدث في كتابه عن مواضع إلى الجنوب منها. والواقع أن فرسكو بالدى لم يخطىء في نقل اسم الرامة، إذ أن بالقرب من بيت خليل الرحمن موضع يعرف برامة الخليل، وهو يعتبر من أقدم الأماكن المقدسة في فلسطين، وقد قام المعهد الألماني الكاثوليكي للأبحاث الشرقية بالتنقيب هناك عام ١٩٣٢ وعثر فيه على بقايا آثار قيمة. أما رام الله التي ذكرتها السكاتبة الفاضلة فإنها تقع على بعد ستة عشر كيلو متراً إلى الشمال من بيت المقدس على طريق المسافر من القدس إلى نابلس، وهي الآن من أكبر قرى فلسطين إن لم تكن أكبرها على الإطلاق، وكان اسمها في العصر الذي عاش فيه صاحبنا السائح الفلورنسي Remelle.

فهل يتكرم الأستاذ الفاضل ويسمح بنشر هذا التصحيح في أحد أعداد مجلتنا الغالية خدمة للتاريخ.

نجيب ع. نصار

نجوى :

إبسمي

إبسمي كالصباح المستهام أطفئي غلة الفؤاد الظامي
يا منير الفؤاد إن أظلم الليل وهاجت صبابتي أحلامي
ويح نفسي كم حملت من هموم
في سبيل الهوى ومن آلام
نعم الناس باللقاء والنجـ ـوى ولم أجن غير لذع ضرام
أنا حيران في صحارى حياة ماج فيها الشقا كبحر طامي
فاطلعي كالضحى عليّ ولما تعربي من (عباءة) في ظلام
إن ليل الحجاب غطى محيا ك اختفاء بقطعة من قتام
حرم البدر عاشقيه وفيه كشفت شمس بهجة الظلام
إيه سلمى وفي الفؤاد اشتعالا
ت هموم قد سببت إيلامي
هل لنا أن نعيش في ظل حب
خالص كالشعور في الأحلام
هل لنا أن نمتع النفس من طيب
حياة ستقضى بابتسام
إن عينيك تسكبان ذهولا في، إن تنظري، يهيج هيامي
وب وهي تصب في الروح كالغيث
إذا جدت في اللقا بابتسام
وأرى في حديثك العذب معنى
ليس يحويه أعذب الأنغام
اذكريني عند الظلام إذا خيـ ـم فوق السهول كالأعلام
فأنا في كآبتي رهين ليل مظلم تحتويه أحلامي
وإذا غردت على الغصن الما ئل طيور بالعشق ووئام
فارقبي ساعة سيجمعنا الدهر
رغم العذال واللوام
سآتيك دون خوف من الإر صاد أو رهبة من الأيام
أو فإنا نقضي شهيدين تبكيـ ـنا الليالي بدمعها الهامي

العراق — بغداد
ضياء الدخيلي

من الشعر المنثور :

وراء القطيع

دع الفتى يردد أهازيجه، وسر وراء القطيع، متأملاً جمال الصباح وروعته. سر وراء القطيع، واعزف بشبابتك أناشيد السمن والشحرور ... وإذا ما بلل نعلك ندى العشب، وغبر وجهك غبار الماشية، فسر وراء القطيع، ولا يساورك أدنى شك، إذ أنك رسول اليقظة، يقظة الخراف والماعز ...

سر وراء القطيع، واسمع قراءة موسيقى أنغام مشيته، وهو يتمهل وعلى جبينه غفوات النعاس.

اسمع قرع أجراس ذلك الفحل الكبير، وانظر إليه وهو رافع الرأس، كالقائد السائر في طليعة جيشه.

انظر أسراب الحمائم وهي تلمع في الفضاء الشاسع، [illegible] طليقة تمرح بين أغصان الشجر المخضر.

وإذا ما وصلت البركة، فاطرح عباءتك على صخورها، وتأمل صفاء موجها، وتناول فطورك مستريح البال، مطمئن الخاطر، إذ أن قطيعك قد شرب واستراح ...

فتى الجبل

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
القاهرة

تليفون — ٥٦٧٦٩

على هامش الكتب الحديثة :

الفاروق عمر (٢)

للدكتور محمد حسين هيكل باشا

من الأعمال التي ينبغي أن نتلقاها بالتقدير والإعجاب في عصرنا الحديث تلك الأعمال الممتازة التي يضطلع بها الدكتور محمد حسين هيكل باشا في بحث الحياة الإسلامية لأقدم عصورها ودرسها درساً علمياً منظماً يستند فيه إلى الاستقصاء والتحليل والاستقراء وتمحيص الرواة وقصص المؤرخين استقراء ينفذ منه إلى رسم الصحف الأولى لتلك الحياة رسماً دقيقاً يستوعب ما تضمنه من شعب وتفاصيل دينية ، وما تطويه من وقائع وأحداث سياسية واجتماعية .

وقد بدأ الدكتور هيكل باشا هذا المجهود القيم بتصوير حياة محمد صلوات الله عليه ، وجلى هذه الشخصية [illegible] تمت فيها جميع الخطوط والألوان التي تصور [illegible] وتكشفها كشفاً دقيقاً ، يهديه في ذلك [illegible] الإيمان ونقل ناصع المنطق والقوة والبيان ، حتى إذا تم له ذلك خرج إلى درس الصديق أبي بكر في الجاهلية والإسلام ، وفي الخلافة وقبل الخلافة مستلهماً في ذلك كله التاريخ وما قدمته الروايات القديمة والنصوص العربية الصحيحة . وما انطوى تحت هذا الدرس حتى بدأ درساً جديداً وبحثاً جديداً هو من أروع الصحف التي تصور تأليف الإمبراطورية الإسلامية ، وأعني صحف عمر الفاروق الذي مد أطناب الدولة الإسلامية من الصين شرقاً إلى طرابلس غرباً ، ومن النوبة جنوباً إلى بحر قزوين شمالاً . ونحن لا نقرأ في هذه الأعمال والمؤلفات حتى نذكر أدب الدكتور هيكل وقصصه وروايته زينب التي بدأ بها حياته الأدبية ، ولكن أين زينب الأمس من محمد أو الصديق أو عمر اليوم ؟ إنه لتفاوت بين المثلين ، فهناك كان الدكتور هيكل يحاول أن يصور حياة الريف المصري . أما هنا وفي محمد والصديق وعمر فإنه يصور عظمة الإسلام ومجده وتاريخه . هو هناك أديب قاص وهنا أديب مؤرخ ، غير أن بذور القصص مستحجنة في نفسه ، فهو يطبع التاريخ العظيم تاريخ محمد وصاحبيه بطابع القصص ، وماذا ينقصه كقصاص ماهر ؟ إنه يعرف جميع أدوات الفن القصصي ، وهو يستعين بهذه المعرفة على أن يسوق تحت أعيننا قصصاً طريفة للنبي صلوات الله عليه ولصاحبيه أبي بكر وعمر ، وهي قصص لا يستمدها من خياله ، وإنما يستمدها من خيال التاريخ ووقائعه ، فيسلسل حوادثها ، ويسرد وقائعها سرداً قصصياً بديعاً يستهوي قارئه وسامعه أيما استهواء . وارجع إلى السيرة النبوية وسيرة أبي بكر الصديق فستراها أنتما على نحو قصصي طريف ، وهو قصص يستمده المؤلف من ثقة التاريخ وتصويره . واترك هاتين السيرتين إلى سيرة عمر الفاروق فستراها كتبت بأسلوب قصصي شائق ، ولكنها [illegible] الأحداث ، ففيها صيغت الإمبراطورية الإسلامية [illegible] وأنت تأليفاً هو أجل تأليف يستطيع أن يتصفه رجل حر واسع الأفق والفكر ؛ فهو يتناول أمور إمبراطوريته بعقل خصب . وإن الإنسان لا يتابع سيرة الفاروق حتى يخيل إليه أنه لم يكن يغفل عن صغيرة ولا كبيرة في دولته العظيمة ، وفي هذه الجيوش التي كانت تساح في مشارق الأرض ومغاربها ، تريد أن تحطم إطار الأمة الفارسية وأطرافاً من إطار الأمة الرومية في مصر والشام ، لتضع مكان ذلك إطاراً لدين جديد يقوم على أن تكفل للناس حريتهم في أموالهم وعقائدهم ، فالله قد خلق الناس أحراراً وما كان لأحد أن يستعبدهم من دون الله .

وإننا لنعجب الآن كيف استطاع عمر أن يؤلف هذه الدولة العظيمة ، ولكن لا نعجب فإن أسباب العجب كلها تزيلها من نفوسنا الدكتور هيكل باشا بما يعرضه علينا من درس وبحث يظهران لك أروع نسيج هذه الحقبة في

تاريخ الإنسانية ، وإنه ليستهدف أثناء درسه وبحثه إلى جمع كل ما يستطيعه من حقائق تاريخية حتى ليوهمك الموقف فتظن أنه قد حشد لك كل الوثائق والمستندات ، فليس هناك من سبب ممكن لتحطيم الدولة الفارسية في مواطنها إلا وقد سجله ، وليس هناك من سبب في تحطيم الدولة الرومية في بعض جوانبها بمصر والشام إلا وقد صوره . وإن البحث ليتسع عليه ، فيخرج في الفاروق مؤلفاً أول نشر أجزاءه منذ حين ، ثم هو اليوم يتبعه بمؤلف ثان يستتم تصوير هذه القصة الطريفة ، قصة حياة الفاروق ، وإنها لقصة دين وأمة ، وهي قصة امتلأت فصولها في الجزء الأول من كتاب الفاروق إلى بيان هذه الثورة التي أزال فيها عمر ملك الأكاسرة من العراق وملك القياصرة من الشام ومد وحدة العرب من خليج عدن جنوباً إلى أقصى الشمال من بادية السماوة .

أما الجزء الثاني من كتاب الفاروق الذي نقدمه اليوم فإنه يسجل الفصل الأخير من قضاء عمر في دولة الأكاسرة كما يسجل تلك الفصول المهمة التي تفسر فتح العرب لمصر وما كان من تردد عمر في فتحها وإقدام عمرو بن العاص على ذلك ونجاحه في إقدامه ؛ وبذلك يتم للدكتور هيكل باشا الحديث عن هذه الصفحة الحربية في تاريخ عمر ، فيتركها إلى حديثه عن صفحة أخرى من حكومته وما كان من إقامته لنظام شورى أخذ به حتى في تعيين الخليفة من بعده . فإذا رسم هذه الصفحة رسماً طريفاً رأيناه يرسم لعمر صفحة أخرى ، هي صفحة فقهه وتشريعه . وأثناء ذلك نراه يعرض لصفحة مهمة هي صفحة الحياة الاجتماعية في عهد عمر ، فيطيل في وصفها وبيانها مقارناً لها بالحياة الاجتماعية للعرب في الجاهلية . وأخيراً يعرض لمقتل عمر ثم يختم كتابه بحديثه عن الأمم التي كونت الإمبراطورية الإسلامية وما كان بينها وبين العرب من تفاعل في الصفات والخصائص .

وليس من شك في أن هذه الموضوعات كلها التي يحتويها بين دفتيه الجزء الثاني من حياة الفاروق عمر تعبر عن أهمية هذا الجزء لما يضم من وقائع وأحداث ، وهي أحداث ووقائع قد كتبت كتابة تاريخية محققة في أسلوب قصصي بديع يمتاز به الدكتور هيكل باشا . فهو يتمثل الحوادث وما يقوله المؤرخون بصددها ، ثم يكتب محاولا جهد طاقته أن لا يحمل قارئه أي ضرب من ضروب العناء والمشقة . ولعل رغبته تلك في إراحة قارئه هي التي جعلته لا يعنى بذكر مراجعه في هوامش هذا الكتاب في حياة عمر إلا في القليل الأقل . ولعلها هي نفسها التي حملته على أن يتشبث برواية بعض الأساطير في كتابه كأسطورة تعرف عمرو بن العاص على شماس رومي من أهل الإسكندرية قدم بيت المقدس حاجاً فنام إلى جانب حفرة ، وأثناء نومه خرجت حية عظيمة من تلك الحفرة تريد إيذاءه ، وهنا يظهر بطل الأسطورة عمرو بن العاص فيقتل الحية ، ثم يستيقظ الشماس فيقص عليه عمرو نبأ الحية فيسر الشماس منه سروراً عظيماً ويود أن يكافئه على إنقاذه لحياته ، فيصطحبه معه إلى الإسكندرية في قصة طويلة لا داعي لسردها لأنها أسطورة ، ونفس الدكتور هيكل باشا قال إنها أدنى إلى الأساطير ، وكان يحسن ألا يرويها ما دامت هناك رواية أخرى تقول إن عمراً دخل مصر تاجراً في الجاهلية بالأدم والقطن ! . . ويذهب مذهب هذه الأسطورة ما يقصه الكتاب في هامش ص ١٦٢ من أن البربر كانوا ينزلون فلسطين وكان ملكهم جالوت . فلما قتله داود خرج البربر متوجهين إلى المغرب حتى انتهوا إلى لوبية فتفرقوا هنالك . ونحن نقطع بأن الدكتور هيكل باشا لا يؤمن بمثل هذه القصص والأساطير ، وكأن محبته للأسلوب القصصي هي التي جرته إليهما حتى يطرف قارئه وسامعه .

وربما كان مما ينتظم في هذا الجانب مسألة تردد عمر ابن الخطاب في فتح مصر وما كان من إقدام عمرو بن العاص على ذلك لسبق معرفته لها في الجاهلية ، فما لبث أن

أذن له عمر في هذا الفتح حتى رأيناه يسير في نحو أربعة آلاف أو لعلهم ينقصون — يقدمهم إلى مصر يريد أن يفتحها ! ويرى عمر بعد إذنه لعمرو أنه قد أسرع في هذا الإذن إذ أرسله في فرقة صغيرة افتح بلد كبير ، ويخوفه بعض الصحابة على هذا المسلمين ، فيرسل إلى ابن العاص برسول على البريد يأمره بالرجوع إن لم يكن قد دخل في حدود مصر . ثم تمضي القصة فتزعم أن الرسول لحق ابن العاص قبل دخوله مصر فأسرع في سيره حتى بلغ رفح ، وهناك فض رسالة عمر ، وحينئذ يقول عمرو إنه لا سبيل إلى الرجوع فقد دخل الجيش في حدود مصر ، ويمضي عمرو بهذا الجيش الصغير فينتصر على ما يقابله من جيوش الروم ، ويفتح له طائفة من الفتوح ، وما زال في انتصاراته وفتوحاته حتى يصل إلى منف ويحاصر بابليون ، وأخيراً يأتيه المدد ، إذ يقبل عليه ثمانية آلاف عليهم الزبير بن العوام ومعه عبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود وسلمة بن مخلد ، فيتمون معه فتح ما بقي من حصون مصر وسائر بلادها . ولا شك في أن قصة فتح مصر على هذا النحو تدخل في باب الأساطير . وإلا فكيف يعقل أن يقتحم ابن العاص أبواب مصر ومعاقلها الشرقية بهذا النفر القليل ؟ ويعجب بتلر (في كتابه فتح العرب لمصر ترجمة الأستاذ فريد أبو حديد ص ١٨٩) مما في هذه القصة من مبالغة ، فيعتمد على إحدى الروايات في المقريزي وتقول إنه انضم إلى جيش ابن العاص بعد فتح الفرما طوائف من البدو القيمين على تخوم مصر الشرقية ، ويشايعه الدكتور هيكل باشا ص ٩٨ في هذا الرأي . والحق أن قصة فتح العرب لمصر على هذا النحو تعتبر إحدى الأساطير . وما لنا نعتمد على هذه الرواية التي تجعل فتح مصر أسطورة مادامت عندنا روايات أخرى أشار إليها المؤلف في هامش ص ٩٠ ؟ وانظر إلى صاحب الفرج روى قصة هذا الفتح على نحو آخر فيقول : « قال أصحاب الأخبار : كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد بعث عمرو بن العاص إلى فلسطين بعد افتتاح دمشق ، فلما أفضت الخلافة إلى عمر رضي الله عنه كتب إلى عمرو يأمره أن يمضي إلى مصر غازياً ، فكتب إليه عمرو يخبره بقلة من معه من المسلمين فأمده عمر بالزبير بن العوام وجماعة من المهاجرين والأنصار فتقوى بهم وتوجه مسرعاً . فبعد أن أنفذ عمر من أنفذ من المسلمين مدداً لعمرو اجتمع أعلام الصحابة فدخلوا عليه ، وقالوا إنك غررت بالمسلمين ! إن أهل مصر عدد لا يحصى ، وبها ملوك كثيرة أموالهم وجاههم . فلما سمع ذلك عمر دعا علياً رضي الله عنه واستشاره ، فأشار عليه أن يوجه إلى عمرو رسولاً على بريد فإن ألفاه قد دخل حيز مصر فلا يرجع ، فإن ذلك وهن على المسلمين ، وإن أدركه قبل أن يدخل حيزها فليرجع » فإذا كانت هذه الرواية بين أيدينا ألا يحسن أن نأخذ بها حتى نصحح كثيراً من الوقائع ولا نجعل فتح مصر أسطورة ! وترى في هذه الرواية صاحب الفرج تصور عمر وعمراً وبينهما المدد ، ثم إن أمر الخليفة هو الذي أمضاه وعمرو في الجيش الذي يقوده ، ثم يأتيه المدد وعلى رأسه الزبير بن العوام وهو لا يزال في فلسطين ، ثم يتقدم إلى فتح مصر فيهز أعلام الصحابة ممن يكوّنون مجلس المدينة الاستشاري نبأ هذا الجيش فيحتجون لأنه لا يزال في رأيهم — بالرغم من مدد الزبير — جيشاً قليلاً ، ويرسل عمر رسول — كما أشار هؤلاء الصحابة — إلى عمرو ، فلا يلحقه إلا وهو بحيز مصر ، فيعود إلى عمر حاملاً إليه هذا النبأ ، فيرسل إلى عمرو بإمدادات أخرى على هذا النحو الذي كان يرسل به الإمدادات إلى من يحاربون في فارس . وأكبر الظن أننا إن أخذنا بمثل رواية صاحب الفرج صححنا الوقف في فتح العرب لمصر ولم نجعله أسطورة من الأساطير .

وأخرى نلاحظها في هذا الجزء الثاني من الفاروق عمر ، وهي مسألة تدوين عمر للدواوين ، فإن الدكتور

هيكل هنا لم يرجع فيها — على ما يظهر — إلى كتاب «الوزراء والكتاب» للجهشياري ، وهو أوثق مرجع في هذا الموضوع ، ولو أنه رجع إليه لأشار إلى الرواية التي تزعم بأن الهرمزان الفارسي هو الذي نصح لعمر بإنشاء ديوان العطاء ، وأيضاً فإنه كان يرفض الرواية التي تزعم أن أول ديوان في الإسلام هو ديوان الإنشاء ، فديوان الإنشاء متأخر في نشأته عن عصر عمر وعصر الخلفاء الراشدين جميعاً .

وأخرى وأخيرة ، وهي أن الدكتور هيكل قد عرض في خاتمة كتابه لما أدخله الفرس والروم في الفن العربي والأدب العربي ، وحاول أن يظهر ذلك فيما كان من اختلاف مذاهب البصريين والكوفيين في اللغة ، وأن هذا الخلاف إنما نشأ لأن البصرة والكوفة كانتا تجاوران فارس ، وكانت إحداهما أكثر محافظة على عروبتها ، وكانت الثانية أكثر [illegible] الثقافة الفارسية ! ولعل المؤلف يقصد [illegible] النحو ، فالنحو في البصرة والكوفة جميعاً كانت العربية ، ولا خلاف [illegible] العربية من حيث هي ، إنما الخلاف في النحو وقبول الشواذ أو طردها وما يتصل بذلك من وضع القواعد والمقاييس . على أننا لا ندري هل تأثر العلماء في وضع قواعد النحو العربي ومقاييسه بما اطلعوا عليه من النحو اليوناني أو النحو السرياني أو الثقافة اليونانية ، أو الثقافة الهندية أو الثقافة الفارسية ، فهذه كلها فروض تحتاج إلى ترجيح .

ومهما يكن فتلك كلها تعليقات جزئية نعلق بها على الجزء الثاني من كتاب الفاروق ونحن نقدر ما فيه من جهد ودأب في درس التاريخ الإسلامي ، وما من ريب في أن هذا الجزء الثاني وما سبقه من الجزء الأول في سيرة الفاروق سيظلان جميعاً مرجعاً من مراجع تاريخ العرب في هذه الحقبة التي أظلهم فيها حكم عمر ، وإنه لمرجع جليل الخطر ، عظيم الأثر .

شوقي ضيف

الباب الذهبي وساعات الصمت

أصدر الأستاذ محمد أمين حسونة ، في الفترة الأخيرة كتابين يتفقان في أن كلاً منهما مجموعة متفرقات .

فأما الأول — « الباب الذهبي » — فهو مجموعة أعمال قصصية غربية ملخصة ، لعل فضيلتها الأولى أن الأستاذ حسونة أجاد انتقاءها . فالرواية أو المسرحية الملخصة ، في العادة ، تفقد قيمتها وتصبح سرداً سطحياً لحوادث متتابعة ؛ ولا ينقذها من هذا إلا أن تكون قائمة على أسس نفسية عميقة ، بحيث يكون إيجازها لا عرضاً لحوادث ، بل تصويراً لحقائق فردية واجتماعية ، من وجهة نظر المؤلف . وذلك ما حدث في هذه المجموعة ، التي تضم ألواناً من الأدب الغربي متنوعة ، فيها الفرنسي والألماني والإيطالي ، وفيها الأسيان والهازل والقلق .

وأما الكتاب الثاني — « ساعات الصمت » — فمجموعة مقالات وفصول كان الأستاذ حسونة نشرها في بعض [illegible] بعض الدراسات النقدية ، وبعض [illegible] الأدب المعاصرة . ويهيمن على هذه [illegible] إلى مثل أعلى فكري ، يحاول التخلص من قيود الزمان والمكان ، ويتطلع إلى ثقافة وأدب وفن ، إنسانية شاملة ، تتلاشى فيها القوميات والعصبيات . وإن كان هذا في ميدانه مجالاً سامياً فأحسب أن الأستاذ حسونة ، في تطبيقه الصارم على وضعنا العربي ، قد استخدم بعض المصطلحات في غير الموضع الذي هي له . وستجد في هذه المجموعة ألوانها ، وتعقيمها ذلك النزوع الإنساني في ذاتها بالأخذ بأنماط حديثة من أساليب التفكير ، ولكنها تفتقر في هذا إلى بعض العمق وبعض القوة ؛ وعذر الأستاذ المؤلف في هذا أنها مقالات موجزة كتبت لتنشر في المجلات .

أما أسلوب هذين الكتابين فبسيط غاية البساطة ، خال من التمحل ومن هذه الصناعة التي قد ترفع مستوى الأثر الأدبي ، ولكنها في مجال البحث الفكري ، وسيلة كثيراً ما تقف عائقة ، فتضيع شأن الفكرة التي تخدمها .

بين المسموع والمقروء

دمشق

لا أريد أن أصف ما حدث في دمشق الدامية، وفي غير دمشق، من أحداث، فهذا شيء عرف الناس تفاصيله. ولكني أريد أن أعلق تعليقاً سريعاً هادئاً على بعض عناصر الموقف.

فأول شيء يقع في خاطري أن اعتداء الفرنسيين هذا ليس الأول من نوعه. فقد وقع مثيله بعد الحرب الماضية، وكان فيه ما في مثل هذا من غدر وقسوة وسوء تقدير. ودلالة هذا أن العقلية الفرنسية هي هي، ما زالت تحركها اليوم نفس العوامل التي حركتها بالأمس. وأشد هذه العوامل تأصلاً امتهان العرب. [illegible] يقع العرب في رتبة الفرنسيين في [illegible] صوروا أنها على شاكلة الماضي، [illegible] الثاني.

ومع بغضهم العرب، لا يفتأون يحشدونهم في السلم والحرب على السواء. وفي السلم نجد دائماً فرساناً منهم أكثر في محافلهم، وفي أوانيهم البيضاء الصافية، وهم يعرضون هذه الأفراس، بالذين عليها من ناس، وهم يعرضونها، ويعرضونهم، ليثبتوا للعالم أنهم إمبراطورية، يأتون من أدناها وأقصاها بالسود والبيض، والعبيد.

وهي مع كل هذا أمة الحرية والمساواة والإخاء.

وقد أوغل الفرنسيون بثقافتهم في الشرق الأوسط أي إيغال، وحرصوا على أن يرسلوا إليه خير الرجال، يعلمونهم أدب هوجو وموسيه، فيتحجرون به على كثير من عقول الشباب والكهول، وهي ساذجة رقيقة، عواطف كريم لا يتفق مع حاضر غير كريم، ويدرّسون لهم تلك الحقبة الناصعة من تاريخ فرنسا، تاريخ الثورة الفرنسية، التي كانت بمثابة الفجر الذي طلع على أوربا بأكثر من معنى شريف من معاني الإنسانية، يدرّسونهم إياها ليستغلوا عقول هؤلاء البلهاء، وأقلامهم في مناصرة حال لهم اليوم لا يتفق مع ماضيهم ذلك البعيد، إلا بمقدار ما يتفق الليل والنهار.

فهذا هو السبب الأول في تلك النقمة التي صبتها باريس على رأس دمشق، ورؤوس ما حولها من مدن وبقاع: كراهة للعرب أصيلة.

ثم إني أتصور فرنسا الضعيفة الكسيحة، تقوم على أحد عكازيها لتضرب بالعكاز الآخر، والوثب بالعكاز [illegible] ذي زن. فيسمع دبابات لا يدري أحد أين صنعتها، ولا من أين اقترضتها، ويسمع طائرات لا يدري أحد لمن كانت، تثير على [illegible] الضعف ولكن بحظ أوفر، [illegible] الأولى [illegible]، فتريد أن تظهر عليها بالجبروت [illegible] في وقت [illegible] الناس فيه بغير الجبروت وسيلة، وتقوم [illegible] التي تقوم به على الرغم من نصيحة أمة أخرى.

أتصور فرنسا هكذا، فتظهر في خاطري صورة من ذلك الشخص الذي كان يدور قديماً في بعض حارات القاهرة بتلك العصي الغليظة التي يسمونها بالنبوت، ويسمونه بالفتوة، فيطيح في الناس [illegible]، فيعصي ويدمي لا لشيء، سوى إحداث الشغب. حتى إذا حضر البوليس فر. فهذا هو الذي فعلته وتفعله فرنسا الآن تماماً. فقد أقدمت، وهي لا بد محجمة بعد أن كشر البوليس عن نابه.

وهذا التشبيه أكثر مما كنت أحسب، (فالفتوة) قوته في عضله وليست في رأسه. وإن لم يكن هذا حال فرنسا، فكيف نفسر إذاً ذلك العمل الطائش الذي كسبت به سخط الشرق وسخط الدنيا معه، وهي تعلم أنها لا تستطيع

أن تغالب الشرق في ضعفه إلى الأبد، ولن تغالب الدنيا في قوتها! وهي تعلم كذلك أن الذريعة القديمة التي كانت تتذرع بها لتأجيج عواطف الغرب ضد الشرق بما زعمته من حماية الأقلية المسيحية قد أبلتها الأيام، وعصفت بها التجارب، وأطارها رجوع أهل الأديان إلى أصول الأديان يستقون منها المحبة والود بين الإنسان.

لو كانت لفرنسا في رأسها تلك القوة التي خالتها حتى في ذراعها وهي قصيرة، لما تطوعت إلى جانب قتل المستقلين وهدم دورهم واحتلال برلمانهم، لما تطوعت بامتهان الإنجليز، حتى بلغ من ذلك أن يقفوا سيارة امرأة، هي زوجة عميدهم بتلك العاصمة المرزوءة، ليصفروا لها، ثم يوجهوا الرصاص إلى دار هذا العميد قبال الإزعاج من تلك السيدة عينها.

لم يكن بد بعد ذلك من رد السيف. فكان في صبيحة الجمعة ما كان: طلب الإنجليز إلى الفرنسيين أن يلزموا ثكناتهم. ثم بعد استكمال الأمن واستقراره، يأتون للمفاوضة — لا ثنائية، ولكن ثلاثية، بعد الذي جرى. وأين تكون المفاوضة هذه المرة؟ لا في باريس، أم الدنيا، ولكن في لندن، تلك التي صغر الساخرون الصبية الأغرار لمقصدها.

ألا ما أقبح الصغير المتعالي بغير الحق. وألا ما أخوى الطبل المتضخم، وليس في أجوافه غير ما يتفقع فيها من أهوية تخرج من فساد ما تضمنته من نزعات بهيمية لا تمت إلى الطهارة الإنسانية بشيء.

إن فرنسا خاصمت الأمم المتحدة في أمرين: السار والجزء الغربي من نهر الرين، ثم السيادة على دولتي سوريا ولبنان. وتعلم فرنسا أن علاقة ما بين الدول في هذه الأيام ليست على أحسن ما يرام، فوجدت الفرصة مؤاتية في مهاجمة الأمم، والتسابق مائدة السلام. وكان عليها أن تختار أحد الميدانين، لتجريب قوتها، وكان أحدهما شرقيا والآخر غربيا، فاختارت بالحسبة أسهل الميدانين، وأبعدهما من ملتقى الأخطار. وهي مخيبة في هذا، لا شك أبدا. وهي بهذه الخيبة قد ورطت حظوظها في ذلك الميدان الآخر، بل لقد ورطت حظوظها في سائر العالم عندما تدرس بحاره الواسعة وأراضيه الشاسعة.

واختارت لتجربة قوتها أبعد الأوقات عن التوفيق. فقد اختارته والأمم مجتمعة في أمريكا ترسم السبيل إلى سلام دائم بين الأمم جميعا لا يكون فيه اعتداء، وهي باختيارها هذا الوقت قد تحدت تلك الأمم جميعها بجمعهم جميعا السخرية البارزة التي تقول للناس خلوني، وهي تحدت من أمتين، بل من أمم العرب جميعها، في الوقت الذي فيه تتشاور تلك الأمم، بسان فرنسسكو، في سوق كسوق عكاظ بين الأمم والناجين فيهم، ونسيت أن الأمم إذا غربت، سرحت، وفي هذه الحالة تصرخ فتسمع دويها في الآفاق.

فتلك سياسة قوم في السياسة ولدين، إنها سياسة عسكريين.

ومن السياسة الفجة أنهم أشعلوها عندما انفرط الحكم الائتلافي في إنجلترا، وحسبوا أن بانفراطه ستعجز الحكومة الإنجليزية القائمة من الحسم، خوفا منها أن يكون فيه المخاطرة بحظها عند الناخبين. فكان رد إنجلترا على هذا هو ما توقعه الخبيرون: أدلى رئيس الوزراء برسالته إلى ديجول في مجلس النواب، فقام رئيس المعارضة توا يعززها ويقويها، وهو خصيمه عند الأمة من بعد أسابيع. وتلت الحكومة نص الرسالة في مجلس اللوردات فقامت المعارضة تؤيدها وتكبرها. إن الإنجليز يعرفون كيف ينقسمون في الداخل، ولكنهم لا ينقسمون في

الخارج ، لاسيما في الأزمات ، أبداً ، فكيف بالفرنسيين ، حتى العسكريين ، فالله !؟

وكلمة أخيرة لابد منها في هذا الظرف إلى أصدقائنا الإنجليز .

إن أسهم الإنجليز لم ترتفع في الشرق كما ارتفعت في هذه الأيام ، فهي في لبنان وسوريا قد ناصرت الحق ، ونرجو أن تتم نصرتها له على الذي يفهمه الشرقيون من المناصرة ، أعني المناصرة الثابتة الصريحة التي لا تردد فيها ولا ميوعة ، والتي لا يقال فيها حقوق ثقافية وحقوق دفاعية ، أعني تلك المناصرة التي لا يكون فيها الحق مشروطاً بتلك الشرائط التي تجعل منه باطلاً . وهي لذلك كانت أول المدعوين إلى الرغبة في الخروج بعسكرها عن إيران إذا طلبت إيران من الدول المتحالفة ذلك في أمس هذا الشهر . ومن ترقبها في فلسطين ظهرت مظاهر الشك لا يود العرب بها إبقاء ، فرجاؤنا إليها ، إلى القائمين بإدارة السياسة في الشرق الأوسط منهم ، أن يتموا هذه السياسة الحصيفة الكريمة في سائر أممه ، فيبادروا إلى تقليص آخر ظل لهم من حماية ووصاية من أمم الشرق جميعها ، ليكون لهم من أمم الشرق جميعها من بعد ذلك كله عضد قوي ، في السلم والحرب ، يستمد قوته من محبة القلوب أكثر مما يستمدها في مداد الأوراق . إن أهل الشرق أهل عواطف ، يؤسرون بالعمل الطيب ، ويجازون بالحسنة على فقرهم حسنات . وهم لا يعمون عن الحقائق من فقر وضعف ، ولكن الحرية في أصلابهم ودمائهم ، وفي آدابهم . فهم إلى الحرية أعطش . وهم من بعد هذا يحمدون اليد الإنسانية [illegible] على الحرية من فقر غنى ، ومن ضعف قوة .

أحمد زكي

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر